المرأة في شعري وفي حياتي

نزار قباني

هذا الكتاب

بعد أربعين عاماً من التجول في أقاليم الشعر والمرأة ، أشعر أن صورتي لدى الناس لا تزال غائمة ، ومضطربة ، ومتداخلة الألوان .

فبعضهم يرى وجهي من جانبه المضيء ، فيستريح له.. وبعضهم يرى وجهي من جانبه المعتم .. فيخاف منه ..

أما أفكاري ، فهي مثل مشاريع القرارات في مجلس الأمن الدولي ؟، تنال غالباً أصوات الفقراء ، والمضطهدين ، والمقموعين ، والمقموعات ، والموؤدات من نساء العالم .. وتصطدم غالباً بالفيتو الأمريكي ..

ورغم ما يقال عني ، من أنني الشاعر الأكثر انتشاراً من الخليج إلى المحيط .. فإنني أيضاً الشاعر الأعظم حزناً من الخليج إلى المحيط .

أشعر أنه لا يزال هناك من يقرؤني خطأ .. أو من يفهمني خطأ .. أو من يذبحني خطأ ..

إنني أعرف أن اختيار المرأة كموضوع رئيسي للكتابة ، هو اختيار صعب ، وأن الحديث عنها هو حديث في المحرمات ، وأن من يمسك يد امرأة ، كالذي يمسك جمرة مشتعلة ..

أعرف أيضاً ، أن التورط في علاقة مع امرأة جميلة ، في وطني كالتورط في عملية تهريب .. أو عملية سطو على مصرف ..

فهل الشعراء كلهم يعانون ما أعاني .. أم (أنا العاشق الوحيد لتُلقَى تبعات الهوى على كتفيا ؟...) .

طبعاً ، إنني لا أطمح أن تصبح صورتي (موحدة) كصور الملوك والرؤساء المعلقة في الإدارات الحكومية ، والمرسومة على طوابع البريد . فهذا مطلب ضد الشعر .. وضد الشاعر معاً ..

كل ما أطالب به ، أن لا تتعرض صورة الشاعر لسوء الفهم ، والتشويه المتعمد .

وهذا الكتاب الذي جمعتُ فيه بعض حواراتي الصحافية والتلفزيونية في موضوع المرأة ، ليس سوى محاولة لتصحيح الصورة القديمة المحفورة في ذاكرة الناس عني .. واستبدالها بصورة أكثر حداثة .. وأكثر إنسانية .

بيروت 1981/9/15

نزار قباني

1

• نزار قباني، ماذا فعلتَ من أجل المرأة ؟

ـ وما الذي لم أفعله من أجلها ؟

حملتها على كتفي أربعين عاماً .. وسافرت بها مشياً على الأهداب ، من الخليج إلى المحيط ، وعلى كل كثيب رمل نامت عليه .. ترعرعت نخلة .. وانبثق ينبوع ماء .

كل من رآها معي ، في شوارع المدن العربية ، ظنها شجرة ورد ..

وكل حاكم عربي ، شاهدها إلى جانبي طلب مني أن أبيعه إياها ..

أعطاني ذهباً كثيراً ... وقصراً كبيراً .. وديباجاً وحريراً .. وعندما اعتذرت عن بيع أنثاي .. أمر بضرب رأسي ورأس حبيبــــتي .. بتهمة التعامل مع الإمبرياليين .. وممارسة الحب دون الحصول على ترخيص من وزارة الداخلية .

ماذا فعلتُ من أجل المرأة ؟

كنتُ محامي الشيطان عنها ..

وأقمتُ دعاوى جزائية بالجملة ، ضد كل الرجال العرب ، بتهمة تخويفها ، وتعليبها ، واستثمارها ، وإذلالها ، وابتزازها ، ونهب ثرواتها الجسدية والعقلية .. كما كان الإنكليز يفعلون في مستعمراتهم الإفريقية .

منذ أربعين سنة ، وأنا أسكن المحاكم ، وأقدم اللوائح ، وأقوم بالمرافعات ، وأستدعي الشهود ، وأعرض أمام هيئة المُحكَمِين أدوات الجريمة ، وثياب المغدورات ..

ولكن (الرجل الأبيض) .. كان دائماً يدعي البراءة ، وينكر اقترافه الجريمة .

ماذا فعلتُ من أجل المرأة ؟

ربما كان من أهم إنجازاتي ، أنني حذفت اسمها من قائمة الطعام .. ووضعته في قائمة الأزهار ..

حذفتُ اسمها من قائمة العقارات ، والأملاك المنقولة وغير المنقولة .. ووضعته في قائمة الكتب التي تـُقرأ ..

حذفتُ جسدها من قائمة الخراف التي تنتظر الذبح ، والعجول التي تنتظر السلخ .. ووضعته في قائمة المتاحف التي تزار .. والسمفونيات التي تـُسمع ..

فككتُ الرهن التاريخي على نهديها .. وأطلقتهما حمامتين .. في سماء تحترف صيد الحمام الأبيض .

وضعتها قرنفلة بيضاء ، على صدري .. ودخلتُ بها على حصان أبيض إلى المدن العربية التي تمارس الحب بصورة سرية .. وتخاف أن تصافح امرأة حتى لا ينقض وضوؤها ..

ولذلك ، لاحقتني صفارات البوليس ، وعلقوا صوري على حيطان الشوارع والأشجار ، ووضعوا جائزة كبرى لمن يأتيهم برأسي .. أو برأس إحدى مجموعاتي الشعرية ...

*

وباختصار كتبتُ (تاريخ النساء) أو حاولت كتابته على الأقل ..

لماذا النساء ؟

لماذا أعطيتُ المرأة هذه المساحة الكبيرة من وقتي .. ومن عمري .. ومن دفاتري ؟

لماذا أضيع وقتي مع المرأة .. وأدخل في دهاليزها اللولبية ، وأستهلك حبري في رصد تفاصيلها الصغيرة ؟.

وإذا لم أضيع وقتي في اكتشاف المرأة ، فهل أضيعه في اكتشاف الرجل ؟

إن الرجل بتركيبته ، مخلوق غير شعري .

الرجل يابسٌ .. ومالحٌ .. وغليظ ..

وهو ما أن يتخرج من الجامعة حتى يفك ارتباطه بالشعر .. ولا يقرأ إلا جريدته اليومية ، وجدول أسعار البورصة .

الرجل لا يدخل إلى مكتبة ليشتري ديوان شعر ..

ولا يدخل إلى دكان بائع أزهار ليشتري وردة ..

في حين أن المرأة ، تبقى حتى آخر لحظة من حياتها تذوب أمام العاطفة الجميلة .. والكلمة الجميلة ..

الرجل يأكل القصيدة بأسنانه ..

في حين أن المرأة تتمرى بها .. وتتكحل بها .. وتعلقها كحلق الزمرد في أذنيها ..

2

- **ورحلتك مع المرأة .. إلى أين ؟**

ـ البحَّار المتمرس لا يسأل (إلى أين) ..

إنه (يُمزمِز) الآفاق .. وزرقة البحر .. والأسماك .. والأصداف .. والإسفنج .. والنتوءات الصخرية .. وطيور النورس .. والمجهول ..

وأنا مع المرأة بحَّارٌ لا يهتم بالمرافئ التي لاحت ، قدر اهتمامي بالمرافئ التي لم تلح بعد ..

والذين يطرحون هذا السؤال ، يتصورون أن المرأة هي ساقية .. أو جدولٌ صغير يمكن قطعه من الضفة إلى الضفة بخمس دقائق .. دون أن يعرفوا أنها أوسع البحار .. وأعمقها .. وأخطرها .

إن فكرة التوبة عن شعري النسائي ، غير واردة ، كما أن فكرة التخلي عن الملاحة في البحار العالية ، فكرة جبانة وسخيفة .

إنني لن أمزق تذكرة هويتي .. ولن أتحول إلى أوتوبيس للنقل المشترك .

لن أترك غابة الحب أبداً .. ولكنني سأحاول أن أستنبت فيها أشجاراً جديدة وغريبة ، وأستورد لها بذوراً ولقاحات وشُتُولاً غير مألوفة ، وسأشق فيها عشرات الطرقات الصغيرة ، وأحفر عشرات الآبار .. حتى تصبح غابة الحب نموذجية .

أما المرأة .. فلا أنوي أبداً توقيع معاهدة فك ارتباط معها ، لأن فك الارتباط معها يعني فك الارتباط مع الشعر ، ومع الحياة ..

ثم من قال إن المرأة تريد أن توقع مثل هذه المعاهدة المذلة لأنوثتها ..

إن وظيفة الأنوثة الأساسية هي أنها تجمع ، وتوحد ، وتحتضن ..

وإياك أن تصدق ، أن امرأة ما تفكر جدياً في مخالفة قوانين الأنوثة السرمدية ، لأنها تكون في مثل هذه الحالة متآمرة على جنسها ..

أنا لم أترك شواطئ المرأة أبداً .. حتى أعود إليها ...

من ذا الذي يترك الرمال الدافئة ، والأصداف ، والأعشاب البحرية ، وسمفونية الموج والريح .. ويغير مكان إقامته ؟

ثم ما معنى أن يتجاوز الكاتب المرأة ؟

إن معناه أن يتجاوز نبضه ، ودورته الدموية ، ويدخل في التكلس والموت .

لا أحد تجاوز المرأة ، إلا تحول إلى إسفنجة .. أو إلى مسمار .. أو إلى منحرف جنسي ..

ولا أحد تجاوزته المرأة ، إلا ونشفت شرايينه ، وأخذ شكل القنفذ ، أو شكل الحرذون ..

الكاتب يبقى وسيماً ، وأنيقاً ، طالما أنه موجود في كنف المرأة وفي حمايتها . وحين ترفع يدها عنه ، يشيخ عشرة آلاف سنة في سنة واحدة .. وينتحر كالفيل الإفريقي من شدة الضجر ، والترهل والغلاظة ..

لماذا تعتبرون الكتابة عن المرأة عملاً سئ السمعة ؟ وتعتبرون شاعر الحب ضالاً بحاجة إلى من يهديه .. ومجنوناً بحاجة إلى من يعالجه ؟ .

اسمحوا لي أن أقول لكم إن المجتمع العربي هو المجنون ، لأنه لا يَقدِر أن يُحِب ، ولا يعرف أن يُحِب ..

واسمحوا لي أن أقول لكم ، إن الأمم لا تدخل في عصر الانحطاط ، إلا يوم تفقد قدرتها على العشق والتواصل الإنساني ، ثم اسمحوا لي أن أقول لكم ، إن الوطن الذي يصادر قصائد الحب كما يصادر العملة المزورة ، والسجائر المهربة ، وحشيشة الكيف ، هو وطنٌ يستحق البكاء عليه .

3

- **أطلقوا عليك اسم شاعر المرأة .. ما معنى هذا اللقب ؟**

ـ لا معنى له ..

إنه (لصقة طبية) وضعتها الصحافة على جلدي ذات يوم ، ولا أزال أعاني حتى اليوم من آثارها الزرقاء ..

صحيح أن صيت الغنى أحسن من صيت الفقر .. وأن الذي يستحم بالكولونيا أسعد من الذي يستحم بالخل .. وأن النوم على فراش من ريش العصافير ، أطرى من النوم على لوح من المسامير .. وأن القط - كما يقولون - لا يهرب من حفلة عرس ..

كل هذا صحيح .. ولكن الصحيح أيضاً أن ضفائر المرأة إذا التفت على العنق أكثر من اللازم .. تأخذ شكل حبل المشنقة ..

إنني شاعر الرجل .. والمرأة .. والعلاقات الإنسانية جميعاً . وأنا - مع حبي العظيم للمرأة - لا أريد أن أختنق بهذا الشكل المجاني .. ولا أقبل أن تـُفرَض عليَّ الإقامة الجبرية في داخل الجسد النسائي وحده ..

إن طموحي أن أكون في جسد العالم كله ..

4

• من هي المرأة التي تفرض حضورها على الشاعر ؟

- المرأة التي تفرض حضورها على الشاعر ، هي المرأة التي (تلخبطه) ، وتشطب كل تاريخه ، لتبدأ كتابته من جديد .

هي التي تُلغي زمن الرجل الخاص ، وتدخله في زمنها هي ..

هي التي يحضر بحضورها الزمان ، ويرحل برحيلها ..

هي تلك التي تلعب بالوقت ، كما تلعب القطة بكرة الصوف ، فتجعل السبتَ أحداً .. والجمعة خميساً .. وتعطيك وعداً في شهر أكتوبر .. وتأتي في شهر جمادى الأولى ..

هي تلك التي تغير نظام المجموعة الشمسية .. فلا تطلع نجمة إلا بأمرها ، ولا تغيب نجمة إلا بين نهديها ..

هي التي تشعل فينا شهوة الكتابة .. وتستولدنا القصائد كما نستولدها الأطفال ..

المرأة التي تفرض حضورها هي المرأة المشكلة ..

المرأة - البرق .. المرأة - الزلزال ... المرأة - الطوفان .. المرأة - السؤال ...

المرأة التي لا تعرف معها من أين ؟ وإلى أين ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟.

هي تلك السنجابة التي تنط على رفوف المكتبة .. وشراشف السرير.. وأواني الأزهار .. وتقرقش أصابع الشاعر وأوراقه كما تقرقش حبة البندق ..

هي التي تفكك الأبجدية .. وتحرض الشاعر على اختراع لغةً لها وحدها ...

هي تلك المرأة التي كلما ذبحتك ، تلذذت بطعم دمك الساخن .. وكلما دفنتك بين ذراعيها .. تحولت في الصباحِ إلى سنبلة ...

هي تلك المرأة التي تشطب كل عناوين النساء .. وتجعلهن إشاعة ..

هي التي ترتب دفاتري .. وتتعامل معي كطفلٍ عمره شهران .. وتعطيني أقلاماً ملونةً لأرسم .. وطيارات ورقٍ لأطير ..

وأخيراً هي التي تعطيني يدها لأكتب عليها .. وشعرَها لأتغطى به ...

5

- **هل تعتقد أن المرأة في شعرك كانت سبباً في شهرتك ؟**

- على العكس ... أنا أعتقد أن شعري كان سبباً في شهرة المرأة ..

إن بثينة دون شعر جميل بدوية مجهولة جداً ..

وليلى العامرية دون شعر قيس بن الملوح .. بنت لا يعرفها أحد ...

وإلزا تريوليه .. دون شعر أراغون .. امرأة فرنسية مثل ألوف الفرنسيات اللواتي يعبرن شارع الشانزيلزيه ، والمونمارتر ، وبولفار سان ميشال ...

وعندما كتب أراغون (عيون إلزا) .. أخذتْ عيون إلزا تريوليه بُعداً شعرياً لم يكن لها من قبل .. واكتسبتْ حضوراً أخرجها من تاريخ النساء .. إلى تاريخ الأدب ...

وهنا تكمن خطورة الشعر ..

فهو عندما يصطدم بالأشياء ، يتغير جوهرها وتركيبها . وعندما يصطدم بالنساء .. يُلغي أسماءهن .. وعناوينهن .. وجنسيتهن .. ويحولهن إلى نساء في المطلق ..

الحقيقة النسائية رغم تعددها واحدة . بمعنى أني حين أكتب عن امرأة معينة ، فإنني أكتب في نفس الوقت عن كل نساء العالم .

6

• المرأة عنوان الحلم العربي ، كما هي الحائط الذي اتكأت عليه ظواهر التخلف العربي في شكل اضطهادات متعاقبة . اتهامات عديدة سيقت لموقف نزار الشاعر من المرأة . فأين موقفك بالضبط .. وأين موقعها منك ؟

- المرأة لم تكن في أي يوم حلم الرجل العربي ، ولكنها كانت رهينته ومطيته .. والمزرعة التي يمارس عليها إقطاعه التاريخي .

لو كانت المرأة حلماً عربياً ، لكان المجتمع العربي حديقة .. وقمراً .. ونافورة ماء .. ولما كانت هناك ضرورةٌ لوجودي ، أو لوجود كتب الشعر ، لأن جميع الرجال سيكونون عندئذ شعراء ، يتكلمون مع المرأة بلغة الحمائم ... ويطعمونها أوراق البنفسج ، ويضعون حول معصمها أساور الشمس ..

ولكن الرجل العربي لا يتعاطى مع الحلم ..

ولا يستطيع في علاقته مع الأنثى أن يكون شاعراً ..

إن جذوره القبلية ، والإقطاعية ، تملي عليه أن يتصرف مع المرأة كما يتصرف مع الأرض ، والبذار ، والثروة الحيوانية من خيول وطيور وأرانب ..

ولا أدري لماذا يعتريني الشعور أحياناً ، أن العلاقة بين الرجل العربي والمرأة العربية هي (علاقة عقارية) ينطبق عليها كل ما ينطبق على العلاقات العقارية من معاينة ، ودفع رسوم ، واستملاك ..

إن الرجولة كما يفهمها مجتمع الرجال لدينا ، هي القائمة على الكسر ، والقمع ، وإلغاء إرادة الأنثى ..

فمن النظام الأبوي إلى النظام الزوجي ، تنتقل المرأة من معتقل إلى معتقل .. ومن رجل مباحث إلى رجل مباحث ..

ولا تؤاخذوني إذا قلتُ إن أكثر رجالنا في علاقاتهم مع النساء هم مباحثيون ..

وإياكم أن تنخدعوا بالقشرة الخارجية للرجل العربي الذي يعود من أوروبا حاملاً معه حقيبة سامسونايت فيها ثلاثة كتب .. وبضع مجلات .. فهو أيضاً مباحثي على شكل مثقف ..

بالنسبة لي ، كشاعر تورط مع المرأة ، ووصل معها إلى نقطة اللا رجوع ، لا أستطيع أن أقول إنني لم أكن رجلاً عربياً ..

فأنا أيضاً ذرة رمل في هذه الصحارى التي تجتر عطشها وأحزانها .. ولكنني على أقل تقدير لم أكن مباحثياً .. ولم أدخِل إلى معتقلاتي امرأة دون محاكمة .

إن ملفي الشعري حافل بجميع أنواع القضايا مع النساء على مدى ثلاثين عاماً ، وهذا (الملف) ليس سرياً .. وإنما هو ملف مطبوع ، ومنشور ، وموزع على شكل كتب شعرية هي بمتناول جميع الشهود والمحلفين .

ما كتبته عن المرأة لم يكن اختراعاً أو تأليفاً .. وإنما هو معاناة (ميدانية) حسب الاصطلاح العسكري .

والنساء ، كالرجال ، لسن كلهن قديسات .. ووادعات .. وضحايا .. فالضحية ليس لها جنس .. فقد تكون امرأة شفافة كدموع الكريستال ، وقد تكون رجلاً له شارب .. وعضلات .. ويحمل مسدساً ..

النساء عالمٌ فيه الأبيض ، والأسود ، والأحمر ، والرمادي .. وفيه المرأة الحمامة .. والمرأة الهرة .. والمرأة الرقيقة .. والمرأة المجتاحة والعدوانية ، والمرأة التي تقول عيناها شعراً .. والمرأة التي لا تقول عيناها لا شعراً .. ولا نثراً ...

لذلك كان ملفي الشعري مع النساء ملفاً ضخماً .. وكانت الاتهامات كثيرة . لقد قسوتُ على المرأة حيناً .. وقستْ عليَّ أحياناً .. ولكن معركتي معها على وجه الإجمال ، كانت عادلة .. وجميلة ..

ولكن رغم خلافاتي مع بعض النساء - والخلافات فيها الكثير من قماشة الشعر - فقد بقيت المرأة صديقتي .. وقضيتي .. وبقيتُ وكيلها أمام كل محاكم البداية والاستئناف والتمييز ..

إنني أعتبر نفسي مسؤولاً عن المرأة حتى أموت ..

ولكن على المرأة أيضاً أن تكون مسؤولة عن نفسها .

فالحرب هي حربها .. ولا يمكنها أن تربح هذه الحرب باستئجار جنود إنكشاريين .. يقاتلون عنها ..

لا يمكن للمرأة أن تربح أية معركة بالوكالة أو بالنيابة .. أو بتفويض مصدق عند الكاتب بالعدل ..

لا يمكنها أن تقترب من البحر .. وهي خائفة على فستانها الأبيض من رذاذ الموج ..

فالوقوف على شاطئ البحر ، بانتظار بوليس النجدة ، أو شرطة خفر السواحل ، لن يفيدها شيئاً ، ولن يزيد من معارفها عن الرياح والتيارات البحرية .

الحرية مسؤولية ، ومعاناة ، واقتحام .. وعلى المرأة العربية أن تعتمد على قواها الذاتية ، واستراتيجيتها الخاصة .. لا على الجنود المرتزقة ، والفرق الأجنبية التي تتألف عادة من الذكور ..

أما الاحتفال بيوم المرأة العالمي .. فليس سوى حفلة كوكتيل ينصرف بعدها المدعوون كما جاؤوا .. الرجال مع الرجال .. والنساء مع النساء ....

7

- **هل النساء اللواتي يتكلمن ويتحركن ويمارسن الحب في قصائدك هن نساء حقيقيات .. أم أن الفارنتازيا الشعرية تلعب دوراً أساسياً في تشكيلهن ..**

وبتعبير آخر .. هل هن صورة الأصل للواقع العاطفي والجنسي العربي ، أم أنك تُسقِط على بطلاتك كثيراً من مبالغات الذكورة العربية ؟ ...

ـ لا وجود في الشعر لما يسمى صورة (طبق الأصل) .. فالشاعر ليس آلة (فوتو كوبي) .. تتولى نسخ عشرات الصور الفورية .. خلال دقائق ..

إن عين الشاعر تلتقط ألوف الإشارات والمشاهد والموجات الضوئية ، وتفرزها وتصفيها ، ثم تعيد تركيب الصورة تركيباً جديداً ..

إن العالم الخارجي يمر من حدقة الشاعر بالأبيض والأسود .. ثم يخرج من نافذة قلبه ، وهو مصبوغٌ بكل ألوان قوس قزح ..

أما نسائي فلم أستوردهن ، بكل تأكيد ، من جزر الواق واق .. ولم أقم بتلصيقهن على طريقة (الكولاج) ... ولم أركبهن تركيباً مختبرياً ..

إنهن نساء عربيات لهن أسماؤهن .. وعناوينهن .. وملامحهن النفسية والجسدية ، والاجتماعية .. ولكنهن بعد دخولهن مختبر الشعر ، يفقدن أسماءهن الأولى ، وعناوينهن المعروفة .. ولا يبقى منهن في أنبوبة الاختبار .. سوى مادة خضراء ، ذات إشعاع غامض ، يسمونها الشعر ..

8

• **موقفك من المرأة ومن الحب .. ألا يزال كما كان .. أم أن الأحداث الحارقة التي تلف المنطقة فرضت بعض التعديلات على هذا الموقف ؟**

ـ المرأة .. والرجل .. والحب .. هم جميعاً محصلات تاريخية .

أي أنه لا يمكن الحديث عن الرجل والمرأة ، بمعزل عن التاريخ ، وبمعزل عن الوقائع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ..

كل مرحلة لها موقفها ، ولها شِعرها ، ولها مفرداتها .

ومن تحصيل الحاصل القول إن ما أكتبه اليوم ، على صعيد الحب ، مختلف عن كتاباتي في الأربعينات . والمرأة التي غنيتها في الخمسينات هي غير المرأة التي أغنيها في الثمانينات ..

في الأربعينات كانت المرأة عندي غزالاً .. أو وردة .. أو فراشة ربيعية .. أما في الخمسينات وما بعدها ، فهي أرضٌ نقاتل عليها ، ونقاتل من أجلها

، وهي جزءٌ أساسي من أحزان هذه المنطقة ، ومن قلقها .. ومن كبتها وقمعها وكوابيسها ..

في هذه الأيام ، لم يعد بوسعك أن تختلي بحبيبتك ... دون أن يمر بينكما .. سربٌ من طائرات إف 16 يقودها طيارون إسرائيليون ، ويلقون قنابلهم فوق رأسك .. ورأس حبيبتك .. وينسفون المفاعل النووي العراقي ، ويحرقون العقل العربي ، ابتداء من دور الحضانة .. إلى الجامعات .. إلى الأقلام .. إلى الدفاتر .. إلى مرايل الأطفال .. إلى كتب الحساب والعلوم والهندسة .. وكل مصادر المعرفة .

إن الحب العربي اليوم ، محكومٌ بالعامل السياسي ، حتى ليخيل لي ، أن كل قصة حب عربية معاصرة ، تقع في إطار أدوات التنصت ، والرادارت الإسرائيلية ..

9

• بعد ثلاثين سنة من الكتابة ، هل تعتقد أنك استطعت تغيير نظام (المزرعة الجماعية) ومنطق (المزرعة الجماعية) ، وبالتالي هل استطعت أن تغير شيئاً في خريطة الحب العربي ؟

- خريطة الحب في العالم العربي .. ليست خريطة من ورق وكرتون .. ولكنها خريطة من الحجر ..

والدخول في حوار مع الحجر .. قد يوصل إلى الجنون .. أو إلى الشعر .. أو إلى كليهما ..

طبعاً ، أنا لا أستطيع خلال ربع قرن ، أن أقص بأسناني عشرة آلاف كيلومتر من الأسلاك الشائكة يلفها المجتمع العربي حول الحب ..

هذا يحتاج إلى ورشة شعراء .. يشتغلون مئة سنة ، لإزالة كل هذا الركام من المسامير ، والزجاج المكسور ، والألغام المدفونة تحت الأرض ..

ولكن الكتابة كالمياه الجوفية ، تحفر الأرض ببطء . وكل قصيدة نقرؤها تترك تحت جلدنا بذرة تمرد .. وتضرم في داخلنا شرارة غضب ، ومن تجمع الشرر ، تتشكل النار الكبيرة .

إن ثلاثين عاماً من كتابة شعر الحب ، لا تكفي لتغيير منطق مدن الملح والنحاس .. ولكنني مع ذلك ، أشعر أن خريطة الحب التي رسمتها ، أصبحت رسمية ، في مدارس الوطن العربي .

10

- كيف يمكن للشاعر أن يتوجه للمرأة والثورة معاً ؟

ـ أنتم تحشرون الحب في ثقب إبرة ..

ويغيب عنكم ، أن الثائر الكبير لا يمكن أن يكون إلا عاشقاً كبيراً . فالذي يحب امرأة يحب وطناً .. والذي يحب وجهاً جميلاً يحب العالم .

لا يمكنني أن أتصور مناضلاً على شكل مسمار .. أو على شكل بلاطة .. كما أنني لا أستطيع أن أتصور عاشقاً ليست له هموم ثورية .

لكن رسوباتنا ، وعقدنا الجنسية ، جعلتنا لا نستطيع أن نتصور الحب إلا مقروناً بالمرأة .. وبجغرافية جسدها ..

هذا تحديدٌ ساذج للحب . وأنا حين كتبتُ شعراً في المرأة ، لم يكن قصدي توقيع معاهدة أبدية مع جسدها ، بحيث لا أقول شِعراً إلا بها .. أو لها ..

الحب عندي عناقٌ للكون ، وعناقٌ للإنسان ..

والوطن قد يصبح في مرحلة من المراحل عشيقة أجمل من كل العشيقات ..

11

• دعوتَ وتدعو إلى تحرير المرأة . ترى هل تمارس الدعوة على الأقربين ، ابنتك مثلاً أو أختك ؟

- بدون أدنى تردد . فأنا حين أحمل الشمس بيدي ، فلكي أضئ بها العالم ، ولا أستثني بيتي ..

وما أسخف الحرية ، حين تكون بضاعة للتصدير الخارجي فقط . إنني لا أطبق قصة الدكتور جيكل والمستر هايد في فكري وفي ممارساتي .. وإنما أشعل النار في ثيابي قبل ثياب الآخرين ...

12

• أنت شاعر مادته الأساسية الحب . لكنه يكاد يكون حباً مادياً محكم الارتباط بالحياة اليومية . فما هو مفهومك للحب ؟ .

ـ الحب ، هو زحف الكائنات على بعضها بغاية الاتحاد والتعدد .

الكائنات كلها تزحف على بعضها مدفوعة بحافز العشق ، ومحكومة بوظائفها البيولوجية والكيميائية ، لا بنزعاتها الميتافيزيكية ، لأن الميتافيزيك لا ينجب أطفالاً ...

وإذا كان القديسون ، والطوباويون ، والشعراء ، والعذريون ، والعاجزون جنسياً .. يطيب لهم أن يرشوا على أجسادهم وأجساد حبيباتهم من حلاوة الحلم ، وطرافة التخيل ، فلسوف نتساهل معهم في سبيل أن يعطونا أعمالاً شعرية ، وروائية ، وموسيقية ، وتشكيلية جيدة ...

أما إدخال العشق إلى (الكرنتينا) ، وعزل العشاق عن بعضهم ، وتعقيمهم من نزوات البشر ، وشهوات البشر ، فهو نوع من الختان القسري .. والسباحة ضد جاذبية الأرض .

المسرح الحقيقي للحب هو الحياة اليومية . المقاهي ، الحدائق العامة ، الجبال ، الحقول ، دور السينما ، المسارح ..

الحب يتسكع في الأزقة الضيقة ، يتبلل بالمطر .. يقف أمام أكشاك الجرائد .. يشرب القهوة الإكسبرسو .. يدخن كل أنواع السجائر .. يركب القطارات .. ينتظر في قاعات الترانزيت في المطارات .. يدخل إلى المطاعم ولا يأكل شيئاً .. يشتري كل الصحف اليومية ولا يفهم شيئاً .. يرى العروض المسرحية ولا يرى شيئاً ..

عن هذا الحب أكتب ...

13

• شعرك ملئ بالتصوير الحسي ، حتى يكاد القارئ يضع يده على يد المرأة التي تصفها .. هل الواقعية تفقر الشعر أم تغنيه ؟

ـ إذا كان القارئ يستطيع أن يضع يده على يد المرأة التي أكتب عنها .. أو يلعب بشعرها الغجري ، فيجب أن يشكرني على النعمة التي أسبغتها عليه ..

ولا يعنيني أبداً الكتابة عن حب لم أره .. ولم (أتشرف بمعرفته) .

إنني لا أستورد أحاسيسي ومشاعري من بلاد أخرى .. ومن آداب أخرى ...

قد تكون (عيون إلزا) لأراغون جميلة .. ولكن (عيون المها بين الرصافة والجسر) هي أيضاً جميلة ، لأن فيها يختبئ الليل ، والكحل ، ورائحة القهوة المُرَّة ... وتاريخ كل رجال القبيلة .

العيون العربية تحقق لي الاكتفاء الذاتي .. وترشني بالشوق الأسود .. وتضمن لي استمرارية الحوار مع التاريخ ، ومع الأرض ...

وحدها المرأة العربية .. هي موضوع عشقي .

إنني لا أتعامل في شعري مع نساء الكواكب الأخرى ، لأنني بكل بساطة لا أعرفهن .. ولم أتناول العشاء معهن في أي مطعم من مطاعم بيروت ..

إن المرأة عندي ليست تشكيلاً ذهنياً ، ولا فكرة مجردة ، أقرؤها في الكتب ، ولا فاكهة في بساتين الخرافة ..

المرأة ليست الوجه الثاني للقمر ، ولكنها القمر ..

وليست صورة البحر في لوحة زيتية ، ولكنها البحر .. وليست جنية من جنيات الأساطير .. ولكنها جنية مودرن تلبس الجينز ، وترقص على موسيقى الديسكو .. وتسوق سيارة مكشوفة السقف .

إنني لا أستعير نسائي من الروايات والأفلام الأميركية والإيطالية والفرنسية ..

قد يستطيع غيري أن يحب (بالنظارات) .. ويكتب شعر الحب بالنظارات .. أما أنا فأدخل الحب بكامل ملابس الميدان ، فإما أن أنتصر .. وإما أن أنتقل لرحمة الله ...

لقد سبق لي أن قلت ، إنه لا يستطيع أن يتحدث عن البحر إلا من غرق فيه ، وعن النار إلا من احترق بها ، وعن العشق إلا من مات عِشقاً ..

أما الكتابة عن امرأةٍ لا نعرفها ، فتزويرٌ لا تحتمله الورقة ، وكذبٌ يعاقِب عليه القانون ...

14

• المرأة العربية اليوم ، هل تغيرت نظرتك إليها ، عما كانت عليه قبل ربع قرن ؟

ـ المرأة العربية تغيرت .. وغيرتني معها ...

هي صارت أشد ذكاء ، وحبي لها صار أكثر حضارة .

هي خرجت من قارورتها ، وأنا خرجتُ من بداوتي .

المهم أن أتغير أنا .. أن يتغير الرجل ..

فالمرأة هي الوجه الآخر لي ..

إذا تعاملتُ معها كوردة ، أعطتني عطرها ..

وإذا تعاملتُ معها كذبيحة ، سال دمها على ثيابي ...

وإذا تعاملتُ معها كجارية .. سقطتْ ، وأسقطتني معها .

فليس هناك امرأةٌ حرة ... إلا بوجود الرجل الحر ...

15

• **كيف تتصور (تثوير المرأة) ... ومن أين يبدأ ؟**

ـ يبدأ أولاً بغسيل دماغ الرجل العربي من تراكمات عصور (الوأد) .. والغزو ، والصيد ، والقنص ..

ثم ينتقل إلى تحرير عقل المرأة من أحلام دمية الخزف .. التي تقعد بانتظار من يشتريها ..

المطلوب ثورة على مرحلتين :

تتجه الأولى إلى الرجل ، فتمزق ورقة (الطابو) التاريخية التي يحفظها الرجل في خزانته الحديدية .. ويمارس بموجبها حقوقه على المرأة .. شراءً .. وبيعاً .. ورهناً .. وحجزاً .. وهجراً وطلاقاً . وتتجه الثانية إلى مقصورة المرأة .. وتصادر منها قوارير العطر ، وحناجر الكحل ، وطلاء الأظافر ، والمبارد ، والمقصات ، والدبابيس ، وأحمر الشفاه ، ورافعات النهد ، والخواتم ، والأقراط ، والأساور ، وكل (عدة الشغل) ... التي تستعملها المرأة للسطو على الذكر .. وأخذه رهينة .. أو أسيراً .. أو زوجاً ..

16

• يزعم البعض أن شعرك هو دعوة صريحة لتحطيم الموروثات الأخلاقية السائدة في الشرق .. فما هو ردك على هذا الاتهام ؟

ـ إذا كنتَ تعني بالموروثات الأخلاقية السائد في الشرق ، هو حق الرجل في (قرقشة) عظام المرأة .. واستعمال جسدها كمزرعة يفلحها في الوقت الذي يريد .. ويحصد محصولها في الوقت الذي يريد .. فأنا سعيد بهذه التهمة ..

وإذا كان اتهامي ناشئاً عن مطالبتي بتطبيق قانون (الإقطاع النسائي) على الرجل ، ومصادرة الفائض من نسائه ، أسوة بقانون الإقطاع الزراعي .. فأنا سعيد بهذه التهمة ..

وإذا ناديتُ بالتعامل مع الأنثى على أنها روح .. وكرامة .. وقيمة .. لا على أنها ذبيحة نتناهشها .. ونذبحها من الوريد إلى الوريد ، (غسلاً للعار) .. فأنا سعيدٌ بهذه التهمة ..

إنني أعرف وجوه قضاتي جيداً .. وأعرف أسماءهم واحداً واحداً ..

إنهم التاريخيون الذين يخافون من سقوط امتيازاتهم الزمنية ، ويخافون أن تحدث ثورة في سجن النساء .. ويخافون أن تطلبهم المرأة إلى (بيت الطاعة) .. ويخافون أن تتزوج عليهم أربعة رجال ، كما يتزوجون عليها .. ويخافون أن تطبّق المرأة العربية عليهم قانون (السن بالسن والعين بالعين) .. فيبقون بلا عيون .. ولا أسنان ..

يجب أن نتوقف فوراً عن اعتبار جسد المرأة هو المعيار الأخلاقي لشهامتنا وشرفنا .

فالمسؤولية الخُلُقية يجب أن تُوَزَّع بالتساوي على جسد الرجل والمرأة معاً .. فليس من العدل في شئ أن نرمي الورد والرياحين على جسد الذكر .. ونرمي السكاكين وأقواس النشاب .. على جسد الأنثى .. فمثل هذا الحُكم القراقوشي أصبح مرفوضاً جملة وتفصيلاً .

17

• هل تتعامل مع المرأة في حياتك الخاصة بالرقة والشاعرية نفسها التي تعاملها بها في قصائدك ؟

ـ لم أكن لطيفاً مع المرأة في كل شعري . مع بعض النساء كنت لطيفاً .. ومع بعضهن كنت متوحشاً ..

وهكذا أنا في حياتي ، أتعامل مع كل امرأة بأسلوب يتفق مع نوعية المرأة التي ألتقي بها ..

وليس من المعقول أن تكون مواقفي واحدة من جميع النساء . فلا أنا جمعيةٌ خيرية .. ولا أنا مُزيِّنٌ نسائي تفرض عليه مهنته أن يبتسم لكل الداخلات إلى صالونه .

إن الشاعر ليس كائناً ضوئياً .. ولا قديساً .. ولا سوبرماناً .. فهو إنسانٌ كسائر البشر يرضى ، ويغضب ، ويثور ، ويسامح ، وينفعل ، وينرفز ، ويمزق ، في حالات احتراق الأعصاب ، كل ما يقع بين يديه ، بما في ذلك رسوم الحبيبة ، ورسائلها المقدسة ..

ولعل القليلين من أهل الخبرة يعرفون ، أن الخصومة مع النساء ، هي ملح الطعام ، ومصدرٌ من أهم مصادر الشعر .. في حين أن السلام مع المرأة ، ينجب أطفالاً .. ولكنه لا ينجب شِعراً ..

18

• باعتبارك مرجعاً من مراجع الحب .. هل تصدق غرام أراغون لإلزا تريوليه ؟

هل ما زالت هذه المشاهد الغرامية مصدقة ، أمام فظائع القتل ، والفقر ، والبؤس والمجاعات .. ولا سيما في العالم الثالث ؟

ـ ولماذا لا أصَدِق ؟

إن الحب في نظري هو التعويض العادل عن كل بشاعات هذا العالم ، وحماقاته ، وجرائمه ..

إن انفجار القنبلة لا يلغي أبداً تفتح القرنفلة .. كما أن الطعنة لا تلغي القبلة .. والذبابة لا تلغي الفراشة .. وطائرات إف 15 و 16 لا تلغي ولادة الأطفال .. والمعتقلات لا تلغي الحرية ..

البشاعة ليست وقفاً على العالم الثالث . إنها في كل مكان ..

وربما نحن في هذه المنطقة أحسن حالاً من غيرنا ... لأن غدد الدمع عندنا لا تزال تشتغل .. وغدد الشعر لا تزال تشتغل ..

إننا ـ بحمد الله ـ لا نزال قادرين على العشق . صحيح أننا نموت جوعاً وعطشاً وقمعاً وانكساراً ... وصحيح أنهم يرسلون إلينا في مطلع كل أسبوع طائراتهم ليضربوا خيمة ليلى العامرية ، وقيس بن الملوح ، ليمنعوهما من مطارحة الشوق .. وإنجاب الشعر .. والأطفال ..

ولكن برغم طلعات الطائرات ، لا يزال مجنون ليلى بخير .. ولا تزال ليلى العامرية تستقبله ... بعد رقاد أبيها ....

19

• كنت نصيراً للمرأة ، المدافع عنها . هل تعتقد أن شِعرك ساعد على تحرير المرأة من الظلم ؟

ـ الشعر كالبنسلين الزيتي ذي المفعول البطئ .. وليس فرقة من المظليين تهبط على مطار .. وتحتله بنصف ساعة .

وتحرير المرأة ، مثل تحرير فلسطين ، لا يتم بالضراعات والأدعية وتقديم النذور ، ولكنه بحاجة إلى عشرين فرقة انتحارية من النساء ..

والهدف الاستراتيجي الأول هو الرجل طبعاً ..

وقبل تحرير الرجل من عقد التسلط ، والأنانية ، والنرجسية ، وقصقصة أظافره .. وغسيل دماغه من مخلفات الغزو والنهب والاستيلاء على السبايا .. فلا سبيل للبحث في تحرير المرأة ..

إن ثلاثة أرباع رجالنا هم أعضاء في نادي (أبو زيد الهلالي) .. وما لم تصدر مذكرة توقيف بحق كل أعضاء هذا النادي ، وختمه بالشمع الأحمر .. فسيبقى أبو زيد الهلالي يتجول بقنبازه وشرواله في كل حارات الوطن العربي .. ليقصف رقبة كل تلميذة ترتدي الجينز ..

إن تحرير الرجل يأتي أولاً في نظام ترتيب الأولويات .. ولا أزال مؤمناً بالقاعدة الكلية التي تقول :

((أعطني رجلاً حراً .. وخذ امرأة حرة ..)) .

20

• كخبير في الحب ، هل من الصحيح أن الرجل عندما يكون مُغطىً بالنساء ، يشعر أكثر بعجزه عن امتلاك امرأة واحدة ؟

- الجيش الألماني احتل أوروبا كلها ، خلال الحرب العالمية الثانية ، ولم يحتل منها شيئاً ..

إن وفرة النساء في حياة رجل ما ، تجعله كتاجر (الخردة) لا يُحِس بتفاصيل بضاعته . وقد تفعل امرأةٌ واحدةٌ في رجل ، ما لا تفعله الزلازل في قشرة الكرة الأرضية .

وكما لا يمكن للرجل السوي ، أن يلبس عشرة قمصان على جسده ، فليس في وسعه أن يلبس عشر نساءٍ معاً .. لأن الحرارة الجماعية لا تدفئ ...

والذي يقول لك إنه خرج ليلة الأمس ، مع عشر نساء .. فاعرف أنه لم يخرج مع أحد .. وأنه نام وحيداً في فراشه ..

21

• يتهمونك ، بأنك عاملت المرأة في شعرك ، بوصفها سلعة أخرى مكملة لديكور الليل ، والبيت والسرير ... ما رأيك ؟

- (الشهريارية) لم تكن أبداً مهنتي .. فشعري مسرحٌ تحركت عليه ألوف النماذج البشرية . كان فيه رجالٌ طيبون ونساءٌ طيبات ، وكان فيه رجالٌ سيئون .. ونساءٌ سيئات ..

الرجال الذين كتبتُ عنهم ، لم يكونوا من اختراعي ، والنساء اللواتي كتبتُ عنهن ، لم يكن من اختراعي .

كان أمامي عالمٌ عربي ، يتحكم فيه الإقطاع الاقتصادي ، والجنسي ، والسياسي ، والخرافات ، والشعوذة ، والسحر ، والتنجيم ، والطب العربي ..

وندما تحدثتُ في شعري عن (الإقطاع الجنسي) الذي يمارسه الرجل العربي ، كما في قصائدي (حبلى) .. و (أوعية الصديد) .. و (صوتٌ من الحريم) و (يوميات امرأة لا مبالية) كان في ذهني أن أفضح الظاهرة وأعريها ، فإذا بها تلبسني .

وإذا كنتُ قد استعملتُ صيغة المتكلم في معالجاتي لهذه الانحرافات ، فلأنها الصيغة الأكثر درامية ..

ولكن الناس في قراءاتهم اللاهثة والسطحية ، تناسوا مقتضيات العمل الشعري وأصوله .. وخرجوا بمظاهرة ضدي ..

إن قصيدة الشعر ليست سجلاً عدلياً .. ولا لائحة اتهام نوجهها ضد الشاعر . فالشاعر شاهدٌ على عصره .. وليس مسؤولاً عن جرائم هذا العصر ، وانحرافاته ..

22

• يتهمونك بأنك تدافع عن المرأة أحياناً ، داعياً إلى حريتها ، وأحياناً تقف منها موقف هارون الرشيد أو أبي زيد الهلالي .. كما في قصيدة (الحب والبترول) التي تقول فيها :

متى تفهم ؟

متى يا سيّدي تفهمْ ؟

بأنّي لستُ واحدةً كغيري من عشيقاتكْ ؟

ولا رقماً من الأرقامِ يعبرُ في سجلاّتكْ ؟

ولا فتحاً نسائيّاً يُضافُ إلى فتوحاتكْ ..

متى تفهمْ ؟ .

وكما في قصيدة (الرسم بالكلمات) التي تقول فيها :

تعبتْ من السَّفر الطويل حقائبي

وتعبتُ من خيلي ، ومن غزواتي

لم يبقَ نهدٌ أبيض ٌ.. أو أسودٌ

إلا زرعتُ بأرضه راياتي

لم تبق زاوية ٌ بجسم جميلة

إلاَّ ومرَّت فوقها عرباتي

فصَّلتُ من جلد النساء عباءةً

وبنيتُ أهراماً من الحلماتِ ..

ـ لماذا تقرأون الشعر بالمقلوب ؟

القصيدة الأولى ، يا سيدتي ، هي ذروة قصائدي في الدفاع عن المرأة . وهي مكتوبةٌ بلسان امرأة من نساء الطبقة الوسطى ، ضد هارون الرشيد النفطي .

لقد كتبتُ هذه القصيدة في الخمسينات ، وكل يوم يمر عليها يعطيها حضوراً جديداً ، ويجعلها أكثر مطابقة لمقتضى الحال ، ولا سيما بعد أن رفعتْ منظمة (أوبك) أسعارها ، وصار برميل النفط الواحد يشتري عشر نساء .. بعد أن كان يشتري امرأة واحدة .

أما قصيدة ((الرسم بالكلمات)) التي تستشهدين بها على ساديتي وشهرياريتي ، فهي قصيدة ٌ تتألف أساساً من مشهدين رئيسيين ومتكاملين لا يجوز فصلهما . مشهد الاجتياح الجنسي ، ومشهد الانكفاء .. والسقوط .. والخيبة من الجنس .

ولكن الذين في قلوبهم مرض .. يكتفون بقراءة نصف القصيدة الأول على طريقة (ولا تقربوا الصلاة) .. ويُلغون نصفها الثاني . مع أن هذا القسم يُشكل العمود الفقري للقصيدة ، ومحورها الأساسي . وقد استعملتُ في هذه القصيدة لعبة الأضواء ، كما يستعمل الرسام اللونين الأبيض والأسود ، ليُحدِث الصدمة البصرية .

النصف الثاني من القصيدة يقول :

...واليوم أجلس فوق سطح سفينتي

كاللص ، أبحث عن طريق نجاة ..

وأدير مفتاح الحريم .. فلا أرى

في الظل غير جماجم الأموات ..

أين السبايا ؟ . أين ما ملكت يدي ؟

أين البخور يضوع من حجراتي

اليوم .. تنتقم النهود لنفسها

وترد لي الطعنات بالطعنات ..

الجنس كان مخدراً جربته

لم يُنهِ أحزاني ولا أزماتي ..

والحب أصبح كله متشابهاً

كتشابه الأوراق في الغابات ..

فمكِ المطيب لا يحل قضيتي

فقضيتي في دفتري ودواتي ..

كل الدروب أمامنا مسدودة

وخلاصنا ، في الرسم بالكلمات ...

23

• اتسم شعرك دائماً بعدم التحديد .. فأنت تدافع عن المرأة الشرقية في المطلق ، من دون أي تحديد طبقي .. ومن دون أن تلحظ أن هناك نساء عربيات متحررات .. ومنهن من تحرر حتى الابتذال ...

- الله يسمع منك .. فأنتِ متفائلة أكثر من اللازم . وقد قررتُ أن أعطي جائزة لمن يدلني على امرأة تحرر عقلها تحرراً حقيقياً .

إن ارتداء البلوجينز ، يا سيدتي ، ليس تحرراً .. وربط السلاسل المعدنية بالعنق ليس تحرراً .. والدخول إلى السينما من الساعة الثالثة إلى السادسة بعد الظهر ليس تحرراً ... وقيادة السيارة ليست تحرراً ..

حتى الذهاب إلى الجامعة ، لم يغير مواصفات الفكر النسائي كما نعرفه . فالجامعية تفكر ، وتتصرف ، وتتزوج على طريقة جدتها ..

الحرية نارٌ لم تكتو بها أية امرأة عربية بشكل جدي . فالتي تتكلم عن الحرية لا تطبقها .. والتي تطبقها لا تتكلم ..

تقولين إنني أدافع عن المرأة في المطلق ..

أي مطلق تتحدثين عنه ؟ ..

هل تعتقدين أن كتابي (يوميات امرأة لا مبالية) هو الحديث عن الحرية بالمطلق ...

إن الدنيا كلها تقول إن واقعيتي جارحة حتى الموت .. وإنني شاعر لا يحلم .. ولا يتوهم .. فهل يمكن أن أطالبك بإعادة قراءتي ..

أما قضية الطبقية ، فلا أعتقد أنها أساس شقاء المرأة العربية ، فالظلم الواقع على المرأة في كل مكان في العالم العربي واحد .

فثمة أميراتٌ ضرب الرجل عليهن وعلى أفكارهن ، وتحركاتهن ، ومطالعاتهن ، حصاراً رهيباً لا يفرضه أي سائق سيارة أجرة ، أو أي عامل بسيط على ابنته .

إنني ألاحظ أن الأنظمة العربية ، سواء أنظمة اليمين ، أو أنظمة اليسار ، لم تغير موقفها التاريخي والكلاسيكي من المرأة . فكل لافتات الحرية التي ترفعها الأنظمة عن تحرر المرأة هي مجرد ديكورات ثورية ..

24

• أنت القائل :

((يا حبيبتي ، آهِ من هذا الوطن الذي يخاف أن يرى جسده في المرآة ، حتى لا يشتهيه .. ويخاف أن يسمع صوت امرأة في التلفون ، حتى لا يُنقض وضوؤه ..)) .

في هذا الكلام ، كما هو واضح ، نوع من الرمزية المباشرة التي تؤشر على متناقضات واقعنا ..

لماذا وظَّفتَ المرأة حتى في هذا الجانب الذي يبدو سياسياً في الغالب ؟

ـ نبت الحشيش على لساني وأنا أكرر في كتاباتي أن المرأة عندي ليست (شاليه) على البحر أتمدد على رماله الذهبية .. وإنما هي أرض ثورية أجرب عليها انقلاباتي وثوراتي ...

ولكن (صوفتي الحمراء) منعت الناس من تصديقي ..

إن زوجتي تقول لي دائماً إن شعر الحب الذي أكتبه هو شعر سياسي ..

في بادئ الأمر ، لم أقتنع بتفسيرات زوجتي وتحليلاتها ، حتى جاء سؤالكم يؤيد وجهة نظرها ..

وشيئاً فشيئاً .. بدأتُ أقتنع أن كل شئ أصبح في حياتنا سياسياً .. بما في ذلك الحب ، وعلاقتنا الحميمة بالمرأة ..

من الصعب اليوم أن تشرب مع حبيبتك فنجان قهوة ، دون أن يطفو على وجه الفنجان جسد بيروت .. أو قنبلة النيوترون ..

بكلمة أوضح ، لم يعد بإمكاننا أن نتغزل بامرأة ، إلا بمفردات سياسية ..

لقد انهارت الحدود نهائياً بين الوردة والقنبلة .. وبين أغنية الحب والمنشور السياسي .

25

• ما هي العلاقة بين الشكل الخارجي الفيزيولوجي للشاعر ، وبين شكل قصائده . وبالنسبة لك شخصياً هل تعتقد أن شكلك الخارجي لعب دوراً في شعبيتك الشعرية ، وإقبال الناس على سماعك ؟ . وإذا وافقت على الإجابة على السؤال .. فما هي العلامة التي تعطيها لشعرك .. وما هي العلامة التي تعطيها لمظهرك ؟ . ؟

- هذا سؤال خبيث وذكي ومشاغب . ورغم ذلك سأرد عليه بكل هدوء وموضوعية .

عندما تعلن وزارة الخارجية في دولة ما عن مسابقة لاختيار دبلوماسيين ، فإن أول امتحان يدخله المتسابقون هو امتحان الهيئة .

وعندما تطلب شركة من الشركات ، أو مصرف من المصارف ، سكرتيرات للعمل لديها ، فإن الشرط الأول ، قبل الاختزال والضرب على الآلة الطابعة ، يكون حسن المظهر ..

وإذا كانت اللياقة البدنية مطلوبة من السفراء ، والسكرتيرات ، ومضيفات الطيران ، وفي كل حقل من حقول العلاقات العامة ، فلماذا لا تكون اللياقة البدنية بالنسبة للشاعر عاملاً هاماً من عوامل نجاحه وتألقه .

إذن يُفترض في كل من أخذ على عاتقه مهمة مخاطبة البشر كالمبشرين ، والأنبياء ، والخطباء ، ورجال الدين ، والمعلمين ، والقادة السياسيين ، أن يتمتعوا بحد أدنى من اللياقة البدنية ، لأن العين هي أول الطريق إلى القناعة ..

وإذا جاز لي أن أستعمل التعبير التكنولوجي ، أقول إن شاعر اليوم لم يعد يكفيه أن يكون صوتاً فقط ... بل عليه أن يدخل بيوت الناس صوتاً وصورة ...

26

• ما هي مواصفات المرأة التي (قد تحبها) .. ؟ ..

ـ أنا غير مرتبط بالمواصفات الدولية لانتخابات ملكة جمال العالم .

فقد ألتقي بفينوس .. ولا أحبها ..

وقد ألتقي بأفروديت .. ولا أحبها

وقد ألتقي بعشتروت .. أو أيزيس .. أو نفرتيتي .. ولا أحبهن ..

وإذا كان ملايين الزوار لمتحف اللوفر ، يقفون دائخين .. ومشدوهين .. أمام ابتسامة الـ (موناليزا) .. فإنني وجدتُ ابتسامتها باهتة .. ومصطنعة .. وفيها شئ كثير من الرجولة .. (حتى أن هناك من يقول إن النموذج الذي أخذ عنه ليوناردو دافنشي ، لم يكن فتاة .. وإنما كان شاباً ..) .

إن ملكات الجمال لا يدخلن في نطاق طموحي واهتماماتي ، فأنا أبحث عن امرأةٍ من الرعية .. تكون حبيبتي ومليكتي .. امرأةٍ لا أقيسها بالبوصات .. أو بالسنتمترات .. وإنما أقيسها بالانفجارات والحرائق التي يمكن أن تشعلها في كل دقيقة من دقائق حياتي ...

من هي ؟ أين هي ؟ من أي نجمة ستهبط ؟ على أي طائرة ستصل ؟ .. في أي فندق ستنزل ؟ . على أي رصيف ستمر .. من أي باب ستدخل .. كم قصيدة شعر ستترك على أوراقي ؟ ..

إن وصفة الأنوثة وصفة سرية جداً .. وهي لا توجد لدى العطارين والصيادلة ... ولكنها توجد في أهداب النساء وكتب الشعر ....

كل امرأة تحمل معها خصوصيتها .. كما تحمل الغيمة ماءها معها ، والنجمة ضوءها معها ، والقصيدة موسيقاها معها ، والعين الكحيلة كحلها معها ..

إن إمكانية الوقوع في الحب غائمة وغامضة ، وفيها شئ كثير من القدرية .

فلا رجل يستطيع أن يقول لك بوضوح ، كيف سال دمه .. وعلى يد أي امرأة ..

ولا امرأة تستطيع أن تشرح لك كيف اشتعلت النار في ثيابها ، ومن هو الرجل الذي حولها إلى رماد ..

إن الذين يربطون الحب بالقضاء والقدر هم في نهاية الأمر على حق . لأن الوقوع في الحب لا يدخل في نطاق البرمجة والتخطيط .

فقد تعيش المرأة وتموت ، دون أن تجد رجلها الذي تبحث عنه ..

وقد ينتقل الرجل من امرأةٍ .. إلى ثانية .. إلى عاشرة .. ولا يجد المرأة الحقيقية التي انتظرها منذ ولادته ..

متى سألاقي المرأة التي (سوف أحبها) . ؟

من هي المرأة التي ستكسرني عشرة ملايين قطعة ؟ .

في أي مقهى من مقاهي العالم تنتظرني ؟ .

ماذا تلبس ؟ . كيف تتكلم ؟ . كيف تفكر ؟

أسئلةٌ لا تـُطرَح ..

ففي الحب شئ كثير من طبيعة الزلازل ..

ومن يستطيع أن يستجوب زلزالاً ؟؟ .

27

• **الحب ، الذي عُرفتَ به ، وعُرف بك ، هل هو حالة ثابتة ، أم متحركة ؟**

- الحب العظيم ضد الثبات والتحجر .

إنه موجة ترفعنا إلى سابع سماء .. وترمينا إلى سابع أرض .. إنه بحر لا سواحل معروفة له ..

والذين يبحثون في الحب عن جزيرة ، أو خشبة يتمسكون بها ، خير لهم أن لا يسافروا ..

الحب ، هو أن نركب دائماً حصان الدهشة .. وأن نسبح في المياه التي منعوا السباحة فيها بسبب هياج البحر ، ورداءة الأحوال الجوية .

ومتى دخل الحب في نطاق العادات اليومية تحول إلى وظيفة ككل الوظائف الحكومية ، وصار مؤسسة .

ومتى تحول الحب إلى مؤسسة .. انتحر ..

إنني حريص على أن يبقى حبي برقاً يضئ الأشياء ثم يختفي .. وحريص على أن يظل وجه محبوبتي في المنطقة الكائنة بين الإضاءة وبين التعتيم .. وحريص على أن تكون الأسئلة التي أطرحها في الحب أكثر من الأجوبة التي أتلقاها ..

28

- **كيف تحب الآن ؟ ...**

ـ ليس هناك كتاب لتعليم فن الحب .. كما يوجد كتب لتعليم قيادة السيارات ..

لو كانت هناك كتب من هذا النوع ، لأصبح كل الرجال وكل النساء (دكاترة) في فن العشق ...

الذي أتصوره ، أن الحب يعلم نفسه بنفسه ، كما يطير العصفور دون أن يدخل مدرسة طيران .. وكما تسبح السمكة دون أن تدخل سلاح البحرية ..

((كيف أحب الآن ؟ .)) .

لم أفكر أبداً في هذا الموضوع . فالذي يفعل الشئ لا يفكر فيه ..

هل تعرف الغمامة كيف تـُمطر ؟

والشجرة كيف تزهر ..

والتفاحة كيف تسقط ؟

أنا أيضاً لا أعرف كيف يدخل الحب إلى قلبي .. وفي اليوم التالي ، تخرج منه حمامة بيضاء ..

29

• بعد ثلاثين عاماً من معاناة الحب طولاً وعرضاً ، واحتراقاً وغرقاً .. ماذا كانت الحصيلة ؟

ـ لا شئ .. سوى عشرين ديوان شعر .. وانسداد في شريان القلب .. ووعد بالتوبة عن الحب ، لم أنفذه ..

30

• لكن هذا ثمن باهظ تقدمه إلى الحب والشعر ؟ .

ـ كل الأشياء العظيمة ذات ثمن باهظ ..

31

• حدثني عن الزمن والحب .. هل يقتل الواحد الآخر ؟ وهل أحدث الزمن تغييراً في نظرتك إلى المرأة ؟

ـ لا أنا أقف في مكاني .. ولا المرأة تقف في مكانها ولا الكرة الأرضية تقف في مكانها ..

في كل دقيقة تحدث تحولات خطيرة في جهازنا العصبي .. تموت عشرة ملايين خلية في دماغنا .. وتولد عشرة ملايين خلية غيرها .

وحواسنا الخمس هي الأخرى تتعرض لتطورات لا نستطيع تفسيرها .

المرأة التي كنا مستعدين أن ننتحر من أجلها منذ عشرين عاماً .. تبدو لنا الآن لوحة زيتية أكلتها أشعة الشمس والغبار ..

ماذا يحدث لنا ؟

إن ما يحدث لنا هو ما يحدث للأرض حين تراهق في شهر أبريل وتتحمس .. وتنفعل .. وترقص .. وتركض حافية في الغابات .. وتغتسل بضوء القمر ..

حتى إذا جاء الشتاء ، أقفلت شبابيكها ، وتدثرت ببطانية الصوف ، وبدأت تقرأ الكتب التي نسيت قراءتها في الربيع ..

الحب نفسه ، كجوهر ، لا يتغير ..

لكن الأسلوب يتغير .. والمواقف تتغير .. وطريقة التصرف تتغير ..

فالبدوي الذي كان يرفع حبيبته ليساعدها على ركوب الناقة ، لا يختلف من حيث الأساس عن الأوروبي الذي يفتح لحبيبته باب سيارة الكاديلاك ليساعدها على الصعود ..

والرجل البدائي الذي يحمل لحبيبته وعلاً اصطاده من الغابة ، لا يختلف من حيث النوايا الطيبة عن عاشق القرن العشرين الذي يحمل لحبيبته عقداً من زهر الياسمين ..

32

• تقول إن الحب هو سباحة ضد التيار . هل يمكن تطبيق ذلك على الفكر أيضاً ؟ وبالتالي هل من قدر الفكر أن يكون دائماً في حالة صدام مع من حوله .. ومع ما حوله ؟ .

- إن طبيعة الإبداع هي طبيعة انقلابية ..

والعمل الإبداعي ، شعراً ، أم رواية ، أم مسرحاً ، أم فنوناً تشكيلية ، يسعى لإلغاء الأشكال والأفكار والقناعات القديمة وتأسيس أشكال وأفكار وقناعات جديدة ..

في كل عمل إبداعي .. لا بد من كسر شئ .. أو اغتصاب شئ .. أو خلخلة شئ . والأشياء المكسورة ، أو المغتصبة ، أو المخلخلة ، لا بد أن ترفض موتها ، بحكم قانون الدفاع عن النفس ..

إنه الصدام التاريخي القديم ، بين المطرقة وبين الحجر .. بين الخنجر وبين الجرح .. بين الشظية وبين اللحم الإنساني ..

من هنا ، يتوجب على الكاتب أن يبقى دائماً كفهد الغابة في حالة توحش .. وتحفز .. وتوتر عصبي .. وفي اللحظة التي يتأقلم فيها الكاتب مع الظروف التي تحيط به ، ويتعود عليها ، وتتعود عليه .. فإنه يتحول إلى حيوان داجن .. ونمر من ورق ..

33

• للمرأة في شعرك ، حضورٌ طاغٍ ، ولا سيما في شعرك الأول ، حيث نراها متمددة كجدول من الحروف والنقاط والفواصل ، كأنها في بيتها ..

ما هي العلاقة الجدلية بين المرأة والشعر ؟ .

- المرأة هي الشعر ...

وليست ملحقة به ، أو مضافة إليه ، أو هامشاً من هوامشه .

كل شِعرٍ كُتِبَ ، أو يُكتَب ، أو سوف يُكتب ، مرتبطٌ بالمرأة كما الجنين بحبل المشيمة ... وأي محاولة لفك الارتباط بينهما ، يقتل الطفل والأم معاً ...

الشعر يجد في المرأة مرضعته وحاضنته ، وأنثاه .. وبالتالي فهي تؤكد ذكورته وفحولته ..

والمرأة تجد في الشعر رجلها ، وبطلها .. ومحرض أنوثتها.. وصانع مجدها وأطفالها .. وحامي أنوثتها من الذبول والنسيان ..

لا يستطيع الشعر أن يكبر .. ويترعرع .. ويقف على قدميه دون امرأة ...

ولا تستطيع المرأة أن تغوي ، وتفتن ، وتلعب بالعالم كعصفور أزرق .. إلا إذا كان الشعر رفيقها وحبيبها ..

إذن ، فالمرأة والشعر يكملان بعضهما ..

هي تعطيه الاشتعال ، والتوهج ، والمادة الأولية للإبداع .. وهو يجملها .. ويكحلها .. ويعطرها .. ويحفظها من التبدد والاندثار ..

المرأة في شعري أعطته حضوراً مائياً .. ونفضت عن أبجديتي الغبار الصحراوي ..

وأنا لا أتحدث عن شعر الحب فقط .. وإنما أتحدث عن كل ما كتبتُ من شعر ونثر ..

فالمرأة تلاحقني كسحابة ، وتنشر ظلالها حتى على شعري القومي والسياسي ...

34

• إذن ، لماذا قال عباس محمود العقاد : إن نزار قباني دخل مخدع المرأة ولم يخرج منه ..

هل هذا نوعٌ من العتاب الأدبي .. أم أنه نكتة مصرية ؟

ـ لا هذا .. ولا ذاك ..

إن ما قاله العقاد ، يعكس ازدواجية المثقفين العرب ..

فالمثقف العربي ، مهما اتسعت آفاقه ، وكثرت معارفه ، ومطالعاته ، وتجاربه ، تبقى عقدة الجنس ، مدفونة في أعماقه .. وتبقى المرأة لديه مصدراً من مصادر الخجل والعار ..

والذي يحيرني في العقاد ، أنه لم يكن محروماً ولا متأزماً ، من الناحية العاطفية ، فعلاقاته بمي زيادة وسارة ، ليست علاقات سرية ..

وأنا شخصياً سعيد ، لأن العقاد استطاع في أوائل هذا القرن ، أن يدخل في علاقات نسائية ، لم يكن المجتمع المصري ينظر إليها بتسامح ..

لكن ازدواجية المثقفين ، كما سبق لي وقلت ، جعلت العقاد ينتقدني ، ويعيب عليَّ أنني (دخلتُ مخدع المرأة .. ولم أخرج منه ..) في حين أنه دخل على صالون مي زيادة (الأدبي) أكثر من مرة .. ولم يستجوبه أحدٌ لدى خروجه ليلاً من منزلها عن سر الزيارة .. هل هو عشق الأدب .. أم هو عشق هذا الوجه اللبناني الذكي واللماح ، الذي كان يستهوي أكثر رجال الأدب في مصر في تلك الأيام ..

ولعل الإنصاف يقتضيني أن أسجل أن موقف الأستاذ توفيق الحكيم من شعري في الأربعينات ، حين نشرتُ مجموعتي الشعرية (طفولة نهد) في القاهرة ، كان موقفاً متقدماً فنياً وحضارياً على موقف أستاذنا العقاد ..

فالحكيم وجد في (طفولة نهد) لغة شعرية جديدة ، وطريقة جديدة في العرض ، وكلاماً خارجاً على المألوف الشعري السائد .. ولم يناقش الحكيم شعري من الزاوية التي ناقشها العقاد ، لأن مذهب الحكيم الفني أكثر حداثة وتقدمية وانفتاحاً .

35

• منذ أربعين عاماً ، وأنت مواظب على مدرسة المرأة .. اجتزت المرحلة الابتدائية ، والثانوية ، والجامعية .. فما هي حصيلة هذه الدراسة المضنية .. وماذا تعلمت من المرأة ؟

- لم أتعلم شيئاً ...

فالحب هو العلم الوحيد ، الذي كلما أبحرت فيه ازددتَ جهلاً .

في عالم النساء لا يوجد شهاداتٌ عالية .. وليس هناك رجل في العالم ، مهما كان مواظباً ، ومجتهداً ، يستطيع أن يدعي أنه حامل (دكتوراه) في الحب ..

أنا شخصياً لا تعنيني الشهادات ..

بل على العكس ، أتكاسل عن قصد .. حتى لا أنجح .. وأبقى في مدرسة المرأة نصف قرن آخر ..

إنني غير مستعجل أبداً على التخرج ..

لأنني لو تخرجتُ من مدرسة المرأة .. فسوف أموت قهراً .. وأغدو عاطلاً عن العمل ..

الرجل الذكي ، هو الذي يبقى مع المرأة (طالب علم) إلى ما شاء الله ..

وفي اللحظة الذي يدعي فيها الرجل أنه ختم دروسه .. وصار عالماً .. أو فقيهاً .. أو مرجعاً في الشؤون النسائية ... فإنه يفقد لذة البحث والاكتشاف ، ويصبح عضواً بالمراسلة في أحد المجامع العلمية ..

لذلك ، يسعدني أن أعلن ، أنني رسبتُ مع المرأة في جميع صفوفي .. وربما كانت هذه هي الطريقة الوحيدة ، كي أبقى شاعراً ...

36

• ماذا يقول لك العطر ؟

ـ العطر لغة لها مفرداتها ، وحروفها ، وأبجديتها ، ككل اللغات ..

والعطور أصنافٌ وأمزجة ..

منها ما هو تمْتَمَةٌ ..

ومنها ما هو صلاة ..

ومنها ما هو غزْوَةٌ بربريَّةٌ ..

وللعطر المتحضر روعته ، كما للعطر المتوحش روعته ، وهذا بالطبع يتوقف على الحالة النفسية التي نكون فيها عندما نستقبل العطر .. وعلى نوع المرأة التي تستعمل العطر ..

والرجل ، يلعب لعبته في تقييم العطر ، بمعنى أن أنف الرجل مرتبطٌ بمستواه وحضارته .

فهناك رجالٌ يفضِّلونَ العطور التي تهمس .. ورجال يفضَّلونَ العطورَ التي تصرخ .. ورجال يفضِّلون العطورَ التي تغتال ...

ثم أن نوعية علاقتنا بالمرأة تلعب دورها في تحديد نوع العطر الذي يعجبنا ..

فعطر الحبيبة شيء .. وعطر العشيقة شيءٌ آخر .. وعطر الطالبة ذات السبع عشر سنة شيء .. وعطر السيدة في الأربعين شيءٌ ..

وبالنسبة لي ، يتغير العطر الذي أحبُّ بتغير حالتي النفسية ، ففي بعض الأحيان أحبُّ العطر الذي يلامسني برفق .. وفي بعض الأحيان ، أحب العطر الذي يعلن عليَّ الثورة .. وفي بعض الأحيان أحب العطر الذي يدخل في حوار طويل معي .. ولكن المرأة التي تشعل أعصابي ، هي التي تأتيني كالغمامة ، وهي لا تحمل على جسدها إلا قطرات الماء ..

37

• تلح في كل ما تكتب على ضرورة تميز القائد العربي بصفة العشق . سياسياً هل هذا ممكن ؟

ـ إذا كانت السياسة هي كما رسمها وطبقها ماكيافيلي ، فهذا غير ممكن ..

أما إذا كانت السياسة ، هي كما عاشها فكراً وسلوكاً عمر بن الخطاب ، فهذا ممكن جداً .. وسهل جداً ..

وإذا كان الشعب العربي يتوجع فكرياً ، ويعاني قومياً ، وسياسياً ، وديمقراطياً ، فلأن الذين يحكمونه لا يعشقون .. والذين يعشقونه لا يحكمون ..

ومتى جاء الحاكم العربي العاشق .. ستتحول أرغفة الخبز إلى ذهب .. وثياب الفقراء إلى ذهب .. وعيون الأطفال إلى ذهب .. وقصائد الشعراء إلى ذهب .. ويصير هذا الوطن جنة تجري من تحتها الأنهار ...

38

- هل كان شعرك يعود إلى امرأة واحدة .. أم لأكثر من امرأة ؟

ـ لو كان شعري عائداً لامرأة واحدة ... لكتبتُ قصيدة واحدة .. واستقلتُ .

39

• متى تشعر بأنك بحاجة إلى إدانة نفسك ؟

- أدين نفسي ، كلما قرأتُ شعري في مجلس يفكر فيه الرجال بكأس الويسكي .. أكثر مما يفكرون بالشعر .. وتهتم فيه النساء بكُحلة عيونهن .. أكثر من اهتمامهن بعيون القصيدة ...

40

• ما هو دور المرأة في العالم ؟

- دورها أن تجعل الأرض تدور ...

41

• **هل يمكن أن تشرح لنا بكلمتين نظريتك في المرأة ؟**

- نظرتي إلى المرأة مبعثرة في أكثر من ألف قصيدة .. ومذاعة على كل الأقنية ... وكل الموجات ...

فهل تريدين أن أشرح الشرح ؟

42

• **سعيد عقل يقول إنه لا يوجد عنده سوى خطيئة واحدة هي أنه يحب المرأة ..**

وأنت كم عدد خطاياك ؟

- تقصدين عدد فضائلي . لأن الحب هو فضيلتنا الوحيدة .. وكل ما سواه مجموعة من الرذائل ...

ثورات في سجن النساء من قاسم أمين إلى نزار قباني

حوار مع الناقد محيي الدين صبحي

1

• محيي الدين صبحي :

لكي أظهر لك كم أن قضية تحرير المرأة مزيفة ، أحيلك إلى النساء المثقفات . ألا ترى أن المرأة العربية المثقفة لا تجعل من تحرير المرأة قضيتها ؟ دعني أرسم لك الخطوط العريضة لمسار المرأة المثقفة في بلادنا : إنها تبدأ مسيرتها في الحياة العامة بنشر بعض الشعر المنثور ، ثم تتطور فتكتب بعض القصص القصيرة ، أو رواية متوسطة الحجم والقيمة ، وقد تكتب بعض المقالات للمؤتمرات النسائية ، وعنها .. فإذا حققت لنفسها مركزاً مرموقاً ، وحصلت على زوج متميز ، استمرأت وضعها وتحولت إلى سيدة صالون !

هذه الحالات ، أكثر من أن تحصى على امتداد المجتمع العربي ، في أراضي الوطن وحتى في المهجر ، وما عداها هو الاستثناء الذي يؤكد القاعدة .

نزار قباني :

ـ لو أردنا أن نطلق الرصاص على المثقفات (والمثقفين أيضاً) لما أصاب الرصاص أحداً .. ذلك أن الثقافة ، بمعناها الأكاديمي الكبير ، هي طريقة حياة .. وموقف جديد من العالم . ولا يستحق كلمة (مثقف) من يكتفي (بالفرجة) على نهر الحياة دون أن يموت بللاً .. أو يموت غرقاً .

إن فأر المكتبة هو دائرة معارف ، ويطالع كل يوم عشرات الكتب في الفلسفة ، والأدب ، والتاريخ ، والرياضيات ، والعلوم . ويقرأ كل ما يقع في يده عن الماركسية ، والوجودية ، والسريالية ، والتكعيبية ، والحداثة ، والقصيدة الإلكترونية ...

ولكنه برغم ما (يعرف) فإنه يبقى محكوماً بظروفه (الفأرية) .. ولا يستطيع أن يتجاوزها ..

هذا الانفصام الرهيب بين الفكرة وبين الفعل .. بين النظرية وبين التطبيق .. بين الحلم النسائي بالانقلاب وبين تنفيذه ، بين التفكير باغتيال الرجل والزواج منه ، بين التشهير بخيانته ونذالته نهاراً .. ومضاجعته ليلاً ..

هذه الثقافة المنافقة .. أو هذا النفاق المثقف .. هو سبب بقاء المرأة على (حطة يد الرجل) .. وبقاء الملك شهريار حياً يرزق حتى اليوم ..

إن قضية تحرير المرأة لافتة من جملة ألوف اللافتات التي يرفعها العالم العربي ضد الاستعمار ، والإمبريالية ، والاستغلال ، والتسلط ، والقمع ..

إنها مظاهرة ، أو مسيرة ضمن المسيرات التي مشينا فيها منذ أربعين عاماً .. دون أن ندري لماذا .. وإلى أين .. ودون أن نتمكن من إخراج امرأة واحدة من سجن النساء ...

كل ما قيل في الحرية والتحرر ، لم يتجاوز حدود اللغة الشعرية ..

أما على الصعيد (الميداني) فلم يسقط قتيل واحد .. لا من النساء ، ولا من الرجال طبعاً ..

المعركة إذن ورقية .. دونكشوتية .. استعراضية ..

المرأة استعملت الأدب كنوع جديد من (الماكياج) للإعلان عن نفسها بالصورة والصوت .. وإعلام (من يهمه الأمر) أنها (هنا) ....

واسمح لي أن أقول ، بصراحة جارحة ، أن بعض نماذج الأدب النسائي التحرري في العالم العربي ، ليس أكثر من (إعلان زواج) غير مدفوع الأجرة .

أما الرجل ، فقد كان يتفرج بخبث واستخفاف من نافذة منزله على المظاهرة النسائية ، وهو يعلم في قرارة نفسه ، أنه لو قرأ على المتظاهرات قصيدة حب من شرفته .. لرمين لافتاتهن ، ومزقن عرائض الاحتجاج التي يحملنها .. وسقطن على صدره معتذرات باكيات .. أو دخلن إلى بيته ليصنعن له فنجان قهوة ...

إن الخط البياني الذي رسمته في سؤالك لمسيرة المرأة الأدبية في الوطن العربي هو صحيح إلى درجة الفجيعة .

وإذا تتبعنا بموضوعية وتجرد ، إشراقة وخسوف بعض الأسماء النسائية اللامعة في حياتنا الثقافية منذ الخمسينات حتى اليوم .. ليتبين لنا أن الأدب لم يكن لديهن أكثر من (سيارة أجرة) أوصلتهن إلى باب المحكمة الشرعية .. أو إلى باب الكنيسة ..

2

• م . ص :

سلوك المثقفات المتخاذل ، يجعل قضية تحرير المرأة تبدو في منتهى الافتعال حين يطرحها الكتاب والشعراء منذ قاسم أمين إلى نزار قباني . فحتى أنت ، صاحب أوسع جمهور وأحدثه ، تشعر بالعزلة عن قضيتك في تحرير المرأة ، وعن جماهير النساء اللواتي تريد أن تنطق باسمهن . البرهان تفصح عنه هذه السطور الذي افتتحت بها مقدمة ((يوميات امرأة لا مبالية)) . تقول :

((أليس من مفارقات القدر أن أصرخ أنا بلسان النساء ، ولا تستطيع النساء أن يصرخن بأصواتهن الطبيعية ؟ .

... لماذا تصمتن أيتها النساء ؟)) .

أعتقد أن النساء يحسن الصراخ لو أردن ، كما أن أصواتهن مهيأة لذلك عند الحاجة . وبالتالي فلا حاجة بك لأن تلبس ثياب المرأة أو تستعير كحلها ..

ن . ق :

ـ عندما يدخل الإنسان معركة ، فإن قناعاته بالانتصار تكون قوية ، وإيمانه بالربح لا يُجادَل . وإلا لما كان هناك حروبٌ ولا محاربون ..

في الخمسينات ، كان المد التحرري في نزوته القصوى ، وكانت الآمال بالوحدة ، والتحرر ، والتغيير ، قناديل تشتعل في داخلنا ..

وبالنسبة لي كان الهم التحرري شمولياً ، بمعنى أنني لم أكن أرسم خطوطاً بين التحرر القومي ، وبين التحرر النفسي والاجتماعي والجنسي للإنسان العربي ، ولم أكن أتقيد بنظام الأولويات ، وبالترتيب الكرونولوجي للثورات العربية .

والكلام الذي قلته في مقدمة ((يوميات امرأة لا مبالية)) كتب في شتاء 1958 ، أي في الأشهر الأولى للوحدة بين مصر وسورية ، بقيادة جمال عبد الناصر .

وفي عصر الكبرياء هذا .. كان الحلم يتسع لاستيعاب السماء .. واللغة تتسع لكل طموحات الفكر ..

ثم جاء زمن الانكسار والإحباطات ..

وتفتتت الأحلام ، وتفتتت معها الأبجدية والطفولة ، وذبلت وردة الحرية ، وصار الإنسان العربي أكثر عطشاً وجوعاً من جرادة صحراوية ..

في الخمسينات ، حلمتُ بامرأة أقتسم معها الكرة الأرضية ببحارها ، وجبالها ، وشموسها ، وليلها ، ونهارها ، وأطفالها ..

في ذلك الوقت كان الحلم جميلاً .. وعادلاً .. ويستحق الموت من أجله ..

ولا يمكنك في الثمانينات ، أن تحاسبني على أحلام الخمسينات ..

لا يمكنك أن تمنع طفولتي من ممارسة طفولتها ..

ولا يمكنك أن تسألني ، لماذا لبستُ في الخمسينات ثياب امرأة .. واستعرتُ كحلها وخواتمها وأساورها ..

في الخمسينات ، كانت هناك مسرحيةٌ تبحث عن بطل ..

وكان قدري أن أخرج من مجتمعات الملاءات .. لأعبر عما يدور في داخل الملاءات ..

لم يفرض عليَّ أحد أن ألعب دوري .. كما لم يفرض أحد على هاملت أن يكون هاملت .. وعلى عطيل أن يكون عطيلاً ..

كل ما أعرفه أنني كنت مقتنعاً بأهمية المسرحية ، وبالنص المسرحي الذي كنت أتلوه بصوت مرتفع ، وحماس منقطع النظير ..

لقد تصورتُ في لحظة من لحظات الغرور ، أنني أستطيع أن أكون الإسكندر المقدوني ، فأفتح الدنيا .. وورائي جيش من النساء المحاربات ..

ولكنني حين التفتُ إلى خلفي ، لأتفقد مواقع جيشي ، وأطمئن على معنوياته ، لم أجد في الخنادق سوى أمشاط مكسورة .. وقوارير عطر فارغة .. وأحذية ذات كعوب عالية من صنع شارل جوردان .. وماغلي ..

إن الحرب ، أية حرب ، تتطلب حداً أدنى من التنازلات الجسدية والاقتصادية والاجتماعية ، كما تفترض التخلي عن حالة الرفاه .. والدلع .. والاسترخاء .. التي تُكَوِّن عقلية مجتمعات الحريم .

لكن المرأة على ما يبدو ، مستريحة في وضعها الاقتصادي التاريخي ، وغير مهتمة بتغييره أو تعديله .

إن هدفها الاستراتيجي الوحيد ، هو أن تكون مشتهاة ... ومرغوباً فيها .. وقادرة على جذب الذكر ، وتدجينه ، وإخضاعه لنظام المؤسسة ..

على هذه الاستراتيجية العامة ، لا تختلف مدام كوري عن بريجيت باردو .. والكاتبة سيمون ده بوفوار عن الراقصة نجوى فؤاد ...

3

• م . ص :

المفارقة التي تحيرني في كتابة الداعين إلى تحرير المرأة ، أنهم تصرفوا باستبداد جديد يفوق الاستبداد القديم : إن أحداً لم يهتم بأن يسأل المرأة ماذا تريد ؟ ومع ذلك فكل واحد لديه تشخيص وحلول وأدوية ، لكن المريض غائب ، غائب عن الحضور أو غائب عن الوعي . مما يجعل تشخيصات المهتمين رسوماً في الهواء ، أو تجريدات ذهنية تتحلل عند ملامسة الواقع .

اسمح لي أن أحاورك بصراحة . كما اعتدنا معاً منذ ربع قرن . أعتقد أن نزار قباني يحرر امرأة أحلامه من طغيانه ، وأن كل كاتب عربي يرسم المرأة المتحررة على هواه ... فالحديث عن المرأة المتحررة ، أشبه بحديث الكاتب عن فتاة أحلامه ، وبطلات القصص أو الأفلام الوردية . إذ أن المرأة العربية على صعيد الواقع الملموس تشاطر الرجل في أميته وجوعه وانسحاقه ، فقضيتها لا تنفصل عن قضيته ، إذا أردنا أن نكون جديين ، وليس من ثوريي الصالونات أو منظري المقاهي .

ن . ق :

ـ لا ضرورة أن نسأل المرأة ماذا تريد ...

فجميعنا لنا أمهات ، وأخوات ، وبنات ، وزوجات ، وحبيبات ..

والظلم الواقع على المرأة ليس إشاعة .. أو خرافة .. أو لوحة سريالية .. إنه ظلم مرئي ومسموع .. ومعروض على شاشة حياتنا اليومية . كما أنه ظلمٌ ثابت كالجبال والوديان والأنهار والصحارى في الوطن العربي .

وإذا كانت المرأة العربية فاقدة النطق .. أو ممنوعة من النطق .. بموجب مرسوم أصدره الرجل ، وإذا كانت غائبة عن الوعي ـ كما تقول ـ فإن هذا لا يمنع الكاتب من اكتشاف الرضوض والكسور والكدمات الزرقاء التي تغطي الجسد النسائي من ذروة النهد إلى أصابع القدمين ..

تقول بصراحتك التي أحبها ((إن نزار قباني يحرر امرأة أحلامه من طغيانه ..)) .

وأنا أقول لك بالصراحة ذاتها التي عودتك عليها منذ ربع قرن : نعم .. أنا أفعل ذلك .. لأنني ذكرٌ من ذكور القبيلة .. ولست سوبرماناً .. أو لورداً من لوردات حي مايفير في لندن .

إن القبيلة تحاصرني .. تطاردني .. ترغمني على تقبيل يد شيخ القبيلة .. وتمنعني من لقاء عفراء ...

ولكنني سخرتُ من أخلاقيات العشيرة ، ورفضتُ تقبيل يد شيخ القبيلة .. وتسللتُ إلى خيمة عفراء من خلال التماع الخناجر .. ونباح كلاب الحراسة .

لم يكن هناك وقتٌ لفتح محضر تحقيق مع عفراء ، ولا تسجيل اعترافاتها على شريط فيديو ..

لا الخناجر كانت تسمح بذلك .. ولا كلاب الحراسة كانت تسمح بذلك .. وهكذا جاءت صرخات الكتاب العرب عن حرية المرأة متقطعة .. متوترة .. شخصية .. ذاتية .. عصبية ..

وهذا شئ طبيعي جداً ..

لأن المرأة لم تكن معنا .. وإنما كنا نسرقها من شقوق الأبواب ..

كنا نخترعها .. ونشكلها كما يشكل الفنان التشكيلي لوحته بقوة المخيلة وألوان الحلم ..

وطبيعي جداً ، أن أرسم المرأة المتحررة كما أتصورها أنا .. وأن أحاول تحريرها من نفسي ، ومن أسناني ، وأنيابي .. أولاً ..

في قصيدتي ((حبلى)) لا تسقط الشتيمة على رأس نزار قباني وحده ، ولكن على رأس كل الرجال .. وفي ((يوميات امرأة لا مبالية)) تنهمر اللعنات على الذكور جميعاً .. بمن فيهم نزار قباني ..

إذن .. فأنا في كتاباتي ، لا أدعي أنني مبعوث سماوي لأحرر المرأة من قضبان سجنها ، لأنني أعرف جيداً أنني وإياها محبوسان في السجن ذاته .. والحُكم علينا واحد .. والقاضي الذي أصدر الحُكم واحد ..

وإذا كان الرجل لا يزال يتمتع بحكم الوراثة ببعض الامتيازات التاريخية ، ولا يزال يتباهى كالديك بصوته العريض ، وريشه المنفوش ، فإنه في الواقع ليس أحسن حالاً من دجاجاته ...

إن حرية المرأة هي حلقة من السلسلة الحديدية التي تكبل الإنسان العربي من ميلاده إلى موته .. ومن أم القوين إلى طنجة ..

ولا يمكن كسر هذه الحلقة ، دون كسر بقية الحلقات التي تربط أقدام الإنسان العربي ، ويديه ، وفكره ، كما تربط أحلامه وغريزته الجنسية .

إن النظام الاجتماعي العربي ، ككل ، بحاجة إلى إعادة نظر .

وما فعلته أنا ، وما فعله غيري ، لم يكن سوى ثورة صغيرة على نظام حجري سلطوي ، يحتاج تصحيحه إلى ألوف الثورات الصغيرة .

4

• م . ص :

إن الكتاب الذين يحررون المرأة دون أن يأخذوا رأيها ، يقيمون برلماناً ينسون أن يدعوا إليه ممثلي الشعب . وأمثال هؤلاء المفكرين يصدرون قرارات تحل مشكلاتهم وليس مشكلات النساء . وإلا فقل لي ، ماذا قدم الفكر العربي لقضية المرأة خلال قرن من المناقشات ؟

تعليم المرأة ؟ إن عدد الشواعر من النساء يضاهي في الجاهلية عدد الشعراء . وكذلك الأمر في صدر الإسلام . وكانت المرأة تتعلم وتثور ، منذ أيام الخنساء ، وهند بنت عتبة ، وليلى الأخيلية .

حرية المرأة في اختيار زوجها ؟ الشرع يعتبر الزواج عقداً لا يتم إلا بموافقة الطرفين .

حرية المرأة في الحب ؟ الحب العاطفي عرفته أوروبا مع الحركة الرومانتيكية في القرن الماضي فقط ، مع بدايات التصنيع . والحرية

الجنسية لم تعرفها أوروبا إلا منذ الستينات ، من عشرين عاماً فقط بعد اختراع وسائل منع الحمل ، مما يدل على أن المجتمع هو المجتمع في كل مكان وزمان ، وأن الجموح طفرات استثنائية لا يُعَوَّل عليها .

ن . ق :

ـ أي برلمان ؟ أي مجلس شعب ؟ أي مجلس شورى ؟ أي كونغرس ؟

إن الرجل العربي لا يسمح للمرأة أن تجلس معه على مائدة الطعام . فكيف يسمح لها أن تشاركه الرئاسة أو الوزارة .. أو تقاسمه الحكم ؟

أنت بطرحك المشكلة بهذه الصيغة ، تبدو كأحد المستشرقين الذين يحاولون أن يكتشفوا الشرق من خلال شرح ديوان ابن الرومي ..

وإذا كان الكتاب والمفكرون يصدرون قرارات تحل مشكلاتهم ، وليس مشكلات النساء ، فهذا جيد .. لأن حل مشكلة الرجل تؤدي تلقائياً إلى حل مشكلة المرأة .

لماذا لا نعترف بأن الرجل العربي هو مشكلة المشاكل .. فإذا تغير هو تغيرت المرأة أوتوماتيكياً ..

لا يمكن للمرأة أن تتحرر في كنف رجل عبد .. ولا يمكنها أن تتكلم في ظل رجل لا يعترف بالكلمة الأنثى ..

أما ماذا قدم الفكر العربي لقضية المرأة خلال قرن من المناقشات ، فأعتقد - وأنا أتكلم هنا من زاوية الشعر - أنه قام بعمل تحريضي داخل سجن النساء ..

وهذا بحد ذاته إنجاز . أما إذا فضل بعض السجينات البقاء حيث هن .. لأنهن تعودن على العتمة ، وتلاءمن مع الحيطان والقضبان ، فهن المسؤولات عن ذلك ، وليس الفكر أو الشعر ..

أما تعليم القراءة والكتابة ، فهو يحل واحداً بالمئة من المشكلة ، ولكنه لا يحل كل المشكلة . فالحرية شئ .. ومحو الأمية شئ آخر .. والقراءة في كتاب النحو والصرف شئ .. والقراءة في كتاب الحياة شئ آخر ..

والدليل على ذلك ، أن أكثر المتعلمات عندنا ، لا يزلن يناقشن شؤون الحب والزواج والمهر بمنطق أمهاتهن .. أو جداتهن .. ويفرضن على الرجل الذي يتقدم لخطبتهن ما لا تفرضه إسرائيل لإرجاع الأراضي المغتصبة .

إذن ، لا بد أن يحدث التغيير في جذر الحياة ، لا في تفرعها وهوامشها ..

وقضية حرية الحب ، أو حرية الجنس ، هي تفصيلات تأتي في وقتها المناسب . أي في الوقت الذي يعترف فيه المجتمع العربي للمرأة بأهليتها وحقها في تقرير المصير .

عندما تأخذ المرأة موقعها كإنسان حر ومسؤول ، وعندما يرفع الرجل يده عنها ، نفسياً ، وجسدياً ، واقتصادياً ، فسوف ترتاح هذه القارة نهائياً من هذه الحرب الصليبية القائمة بين الذكورة والأنوثة .

5

• م . ص :

ومع ذلك فإن الفكر العربي الرخو ، أخفق مرتين ، حين تعرض لقضية المرأة . كانت المرأة الأولى حين فصل قضية المرأة عن قضية الرجل . لأن الحديث عن الحرية حديث في الكلية . أقِم مجتمعاً ديمقراطياً ، تجد أن النساء تمتعن بالديمقراطية في شؤونـهن الخاصة ، كما يتمتعن بها في الشؤون العامة . أوجِـد مساواة حقيقية في الفرص بين المواطنين تلقَ النوابغ من النساء يزاحمن بالمناكب زملاءهن النابغين . وفي مجتمعات الانتهازية ، وقصر الفرص على أعوان السلطة ، تبدو النساء جزءاً من الرشاوى وسوء التوزيع . إنـهن يشاركن في اللعبة بسرعة .

وأخفق الفكر العربي مرة ثانية ، حين طرح مشكلة المرأة كإشكالية تبحث عن الحد الوسط : ينادي بحرية المرأة ، ثم يتراجع ليقول بأنـها حرية تحدها التقاليد من الشمال ، والأعراف من الجنوب ، والعقل من الشرق ، والتراث أو الأصالة من الغرب . ينادي بنزول المرأة إلى ميدان العمل ، ثم يرتد ليُذكرها بأنـها أم وزوجة وأخت و ... إلخ . يطالب المرأة بالمشاركة في النضال ولكن ضمن حدود الطاقة والتطوع .

باختصار ، إن الفكر العربي يسرق باليد اليسرى ما يسعى إلى تقديمه للمرأة باليد اليمنى .

ن . ق :

ـ أنا متفق معك في أن لا انفصال بين قضية المرأة وقضية الرجل . وأن الحديث في الحرية حديث في الكلية .

إن غياب الديمقراطية هو أساس الخلل في المجتمع العربي . وما تذكره هو بديهيات . وما ينطبق على السياسة ينسحب على الحب . وما دمنا عليلين سياسياً .. فنحن عليلون عاطفياً .. وعقلياً .. وجنسياً ..

إذا كنا عاجزين عن إقامة وحدة اندماجية ، أو فدرالية ، أو كونفدرالية بين دولتين عربيتين .. فكيف يمكننا إعلان الوحدة بين الرجل العربي والأنثى العربية ؟

وكما الفكر العربي هو فكرٌ انفصالي تجزيئي .. فئوي .. فإن الفكر العاطفي والجنسي العربي ، هو فكرٌ انفصالي .. وأناني .. ونرجسي ..

والعاشق العربي يفكر بطلاق المرأة في لحظة زواجه منها ..

وإذا كان الفكر العربي ، لا يزال مضطرباً ومبلبلاً وضائعاً في مواقفه من حرية المرأة ، فلأنه لا يزال في النقطة الوسطى بين عصر الجاهلية وعصر الكومبيوتر . لا يزال يلبس ثياب الهيبيين من الخارج ، ويلبس العمامة من الداخل ..

ولن يجد الفكر العربي نفسه حتى يتخلى عن باطنيته ، ونفاقه ، وعقده المستعصية ، ويقول للمرأة ماذا يريدها أن تكون له .. أميرة ، أم جارية ؟ وردة ، أم ساندويشة يقضمها بأسنانه على الماشي ..

6

• م . ص :

تقول في كتاب ((عن الشعر والجنس والثورة)) :

((ما لم نكف عن اعتبار جسد المرأة (منسفاً) تغوص فيه أصابعنا وشهواتنا ، وما لم نكف عن اعتبار جسدها جداراً نجرب عليه شهامتنا ، ورصاص مسدساتنا ، فلا تحرير إطلاقاً . إن الجنس هو صداعنا الكبير في هذه المنطقة ، وهو المقياس البدائي لكل أخلاقياتنا التي حملناها معنا من الصحراء ...)) .

يخطر لي ، إذا سمحتَ لي ، أن أرد على هذه السطور من عدة مستويات .

فلو أن المائة مليون ونيفاً من العرب تربوا في هارفارد ، وتخرجوا من أوكسفورد ، وتعلموا في كامبريدج ، لظل في سلوكهم العاطفي شئ من الجموح ، وفي سلوكهم الجنسي شئ من الشراسة ، وفي سلوكهم التخيلي شئ من ألف ليلة وليلة ، حيث يستحوذ الذكر على كل امرأة في متناول يده .

إن العرب هم العرب ، ولن يصيروا إنكليزاً ولا فرنسيين . إنني لا أجد هذا أمراً مربكاً نختجل به ، فمن حقنا أن نكون مختلفين عن الآخرين . والمرأة العربية من جهتها لن تختار المتردد ولا المتأني ولا المتخنث . الغريب أنني في معظم ما قرأت من الروايات والأشعار العربية ، لم أجد المرأة العربية التي أعرفها وتعرفها . حتى الكاتبات لم يمثلنها على حقيقتها . وبالتالي ضاعت خصوصية السلوك العاطفي الجنسي عند العرب في الأدب العربي الحديث .

ومن جهة أخرى فإنه لم يوجد بعد مجتمع يبيح التحلل ، وقضية وزير الدفاع البريطاني جون بروفيومو وعشيقته كريستين كيلر ، يتكرر عقابها في كل المجتمعات ، ربما لأن الحضارة لا تنشأ إلا عبر المحرمات ، كما يقول فرويد .

ن . ق :

ـ يبدو لي من صيغة سؤالك ، أنك من جماعة (ليس في الإمكان أبدع مما كان) ، وأن العرب ـ جنسياً ـ هم أعظم أمة أخرجت للناس ..

اسمح لي هذه المرة ، أن أرفض تحليلاتك وتخريجاتك وتعصبك العرقي لفحولتنا ..

إن ألف ليلة ، يا عزيزي ، ليس كتاباً مقدساً نتعلم منه كيف يستحوذ الذكر على ألف امرأة وامرأة ..

هذا الموقف ليس حباً .. ولا جنساً .. ولا إرثاً قومياً - كما يوحي تحليلك - ولكنه مذبحة للجنس الثاني .. ومَسْلَـخٌ بكل معنى الكلمة ..

إن قولك (إن العرب هم العرب) يشبه القول : إن الحجر هو الحجر .. والمسمار هو المسمار .. والضبع هي الضبع ..

وبذلك تضع العرب في قارورة وتختمها بالشمع الأحمر ، وتنكر عليهم سنة التطور والتغير .. فكأنما الجنس المثالي - حسب نظريتك - هو عملية فتك وغزو .. ووليمة لا بد أن يكون فيها آكلٌ ومأكول ..

طبعاً أنا لا أطلب من العرب أن يكونوا إنكليزاً .. أو سويديين ..

وليس من طموحي أن أحول الربع الخالي .. إلى سيبيريا ..

ولكنني أطالب بتغيير صيغة التعامل مع المرأة ، وإنهاء مرحلة الإقطاع في علاقتنا معها ..

إنني أطالب (بأنسنة) العلاقة بين الرجل العربي والأنثى العربية ، وجعلها أكثر شفافية وحناناً ..

وإنني أختلف معك ، حين تضع الرجل العربي أمام خيارين :

فإما أن يكون ضبعاً أو تمساحاً أو (بولدوزر) يطحن عظام المرأة ، وإما أن يكون مخنثاً ..

إما أن يكون محمد علي كلاي .. أو يكون صُوصاً لا حول له ولا قوة ..

إن الرجولة لا تكون بالدعس والمعس وفك الرقبة .. وإلا لكان المحراث سيد العاشقين ..

ثم إن تمتع المرأة بحقها في التعبير عن أمانيها ورغباتها ، والظهور مع حبيبها في الشارع العام ، والتلفظ باسمه ، لا يعني أبداً التحلل ..

وقضية (بروفيومو) التي أشرت إليها ، لم يعاقِب عليها القانون البريطاني لأنها علاقة حب بين رجل وامرأة - فليس في أوروبا شئ اسمه جريمة حب - ولكنه عاقب عليها ، لأنها علاقة بين وزير دفاع مسؤول عن أسرار الإمبراطورية البريطانية واستراتيجيتها العسكرية .. وبين بنت هوى ..

إنني لستُ ضد (الخصوصية) التي تطالب بها للرجل العربي .. ولكنني أرفض هذه الخصوصية ، إذا كانت تشبه رخصة التنقيب عن البترول بين نهدي المرأة .. أو رخصة الصيد التي تعطيها وزارة الداخلية لصيد الغزلان ..

الرجولة ، يا عزيزي ، هي حركة حنان يأخذ فيها الجسد شكل القصيدة ، وليست (بلطة) نقطع بها رأس المرأة في ليلة زفافها .. أو غزوة نحرق بها الأخضر واليابس .. تأكيداً لخصوصيتنا التاريخية .. أو القومية ...

أنت تتحدث عن (السلوك الجنسي عند العرب) وتقول إنك لم تجد المرأة العربية فيما قرأته من روايات وأشعار عربية ..

وبكل بساطة أقول لك إن السلوك الجنسي عند العرب هو سلوك الرجل وحده ..

أما المرأة فهي غائبة .. أو مُغيبة نهائياً عن التعبير العاطفي والجنسي .. لأن الذكر هو الذي يحكم في الفراش .. وهو الناطق الرسمي في قضايا الحب .. أما المرأة فهي (أكثرية صامتة) .. وإذا خانها لسانها ، فعبرت عن عاطفتها أو عن شهوتها .. قلنا عنها إنها غانية .. أو لعوب .. أو بغي ..

فكيف تريد أن تسمع صوت المرأة ، إذا كان الرجل العربي يفضلها خرساء .. وبلهاء .. وأمية .. ويخاف منها إذا تجاوزت في دراستها مرحلة (السرتفيكا) ..

• م . ص :

أخيراً ، أعترف لك ، أن الجنس هو مشكلتنا جميعاً ، رجالاً ونساء . لقد تهدمت الأخلاقيات القديمة التي تحرم وتمنع ، لكن المأساة أننا لم نستطع أن نحل محلها أي بديل ... فماذا تقترح ؟

العزاء الوحيد أن الأزمة العاطفية - الجنسية بأبعادها الفردية - الاجتماعية - التاريخية ليست الوحيدة التي تنتظر الحل . فهناك مشكلات الديمقراطية ، والوحدة ، والتصنيع ، والتعليم ، ومكننة الزراعة ، وهجرة الأدمغة ، والتراث ، والمعاصَرة .. كلها مؤجلة تنتظر الحل .

ولكن بالرغم من هذه العطالة التي ترافق الفكر العربي ، فإن العرب يتكاثرون ويتناسلون ، وبالرغم من الحروب الأهلية ، فإن معدل الولادات أكبر من عدد الوفيات ، بحمد الله .. ألا يدل هذا على تراكم ، ولو في عدد المشاكل ؟

ن . ق :

ـ الأخلاقيات القديمة لم تتهدم . لا عند الأميين ولا عند المثقفين ..

فأبو زيد الهلالي لا يزال مرابطاً في كل مكان من حياتنا ، حتى في الجامعات ، ومراكز الأبحاث ، والمؤتمرات الأدبية والحلقات الثقافية .

وقضية الحب ، ككل قضايانا ، لا تحل إلا حين تحل قضية الحرية في المجتمع العربي ..

فلا يمكن أن يكون الجسد العربي حراً .. إلا إذا كان العقل العربي حراً .. والرأي العربي حراً .. والكلام العربي حراً ..

والقمع الجنسي ، كالقمع السياسي ، كالقمع الاجتماعي ، كالقمع الاقتصادي ، هو إحدى حلقات السلسلة الحديدية .

أما التكاثر .. والتناسل .. فلا يعنيان في نظري أي شئ .. لأن الأبقار في أستراليا تتناسل وتتكاثر .. دون أن تشعر بالحاجة إلى القيام بأي انقلاب أو ثورة ....